19me ; annéeNo 916 — Le Caire -21— —

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن هذا العدد ٢٠ مليما
الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Litteraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات
الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العدد ٩١٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٣ ربيع الآخر سنة ١٣٧٠ — ٢٢ يناير سنة ١٩٥١ — السنة التاسعة عشرة »

الدين والسلوك الانسانى

للاستاذ عمر حليق

— ١ —

توطئة :

يواجه الدين فى العالم المعاصر موجتين من التحدى : إحداها إلحادية لا ترى فى الدين إلا « تخلصا من الواقع » ولجوءا إلى التخديرات الروحية التى أبرز ما فيها أنها توجه السلوك الإنسانى توجيها سلبيا إزاء مشاكل الحياة، ومن ثم إزاء عناصر التقدم والسعادة البشرية .«١» هذه الموجة هى محور الهجوم الماركسى على الحياة الدينية

والموجة الأخرى لا تمت إلى الفلسفة الماركسية إلا بصلة غير مباشرة ولكنها تماثلها فى الابتعاد عن الحقيقة الدينية . أعنى بها موجة التحلل من القيم الدينية التى ابتدأت فى أوروبا الغربية فى القرن الماضى والتى تتزعمها الآن الحضارة الأمريكية وتنقلها إلى سائر بقاع الأرض مواصلات فكرية أتقن الأمريكيون وسائلها إتقانا بارعا فى الأفلام السينمائية والصور الفوتغرافية والصحافة ومؤسسات الإعلان والدعاية والقصص الحديثة، وألف نوع ونوع من وسائل الاتصال الفكرى الذى يهيمن الآن على القسم الأعظم من صحافة العالم وإنتاجه الأدبى والفنى

ووجه الخطورة فى الموجة الثانية أنها فى حل من أن تتهم بالدعوة إلى التفسير المادى للتاريخ على النحو الذى يدعو إليه الشيوعيون . ولكنها فى الواقع تفعل ذلك ، وفوقه عنصر من أخطر العناصر فى السلوك الإنسانى وهو تركيز النشاط الفكرى والنفسانى فى حرية الغريزة والعاطفة والاهواء

ومن أوجه الخطورة كذلك فى هذه الموجة التى تتزعمها الحضارة الأمريكية المعاصرة إحاطتها بهالة من التقدير والإعجاب بدعوى أنها من الشواهد الأصلية على التقدم الحضرى وتوجيه السلوك الإنسانى نحو قسط وافر من السعادة والهناء

فحرية الغريزة وانطلاق الشهوات والأهواء التى تمخضت عنها حضارة فرنسا اللاتينية فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر والتى تحمل الآن لواء الدعوة لها الحضارة الأنجلوسكسونية، هذه الحرية أصبحت الآن جزءا جوهريا من مبادئ التحرر السياسى والفكرى الذى هو بحق؛ أفضل ما فى الحضارة الغربية من تراث

«١» — راجع بوخارين الكاتب السوفيتى فى كتابه Marxisms and Modern thought

فالتحرر (ليبيرالزم) فى ثقافة الغرب المعاصرة عامة والأنجلوسكسونية منها على وجه الخصوص عام على الإصلاح فى مجالات الاقتصاد والسياسة والصلات الاجتماعية والانطلاق الفكرى . وهذا يشمل الدين والحياة الروحية والنفسية ، واتجاهات الثقافة الأنجلوسكسونية فى هذه الآونة تقف موقف التحدى لجوهر العناصر التى تضمن التكافل الاجتماعى . فالصراع الفكرى فى أوروبا وأمريكا الآن يكاد ينحصر فى توجيه السلوك الإنسانى لا على أساس العقل كما شرحه فلاسفة القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر ولكن على أساس الغريزة والانطلاق النفسانى (الفيزيولوجى والسيكولوجى) كما بشر به (زيجموند فرويد) وأتباعه من علماء التحليل النفسانى والمدارس الفكرية والأدبية والفنية العديدة التى تأثرت به وتفرعت منه ، وكما تدعو إليه «هوليوود» وكتاب القصة الحديثة وبعض أئمة الفن فى أوروبا وأمريكا

فإذا حق لحضارة الغرب أن تفتخر بأنها خلال القرون الأخيرة الماضية قد أسدت إلى تراث الفكر وانطلاقه من قيود الجمود والبلادة العقلية ، فإن هذه المثل الآن تواجه حملة عاصفة تدفع بالسلوك الإنسانى نحو فلسفة بدائية فى جوهرها ومضمونها تمجد الغريزة النظرية وتناقض العقل وهدوءه وحكمته فتستهوى بذلك الجماعات التى تعيش على الصحف السيارة ووسائل التسلية الرخيصة واللهو والمتعة ممثلة فى الأفلام والقصص الحديثة . وهذه الألوان من الفنون والآداب التى تجد سبيلها إلى صميم دور العلم ومعاقله الراقية فى كثير من بقاع الأرض منها العالم العربى ؛ وذلك لأن هذه الديكتاتورية الفكرية التى تفرضها الحضارات الأخرى لا تقتصر على أنصاف المتعلمين ، بل إن سلطانها يمتد فيؤثر تأثيراً فعالا فى الاتجاهات الفكرية والعاطفية لكثير من المثقفين الممتازين الذين يخلقون حضارات جديدة كما هو الحال فى حاضر الثقافة العربية

وأحب ألا يساء الفهم فى هذا الصدد . فالتعاون الفكرى أمر لا مفر منه ، بل هو فى الواقع من الدعائم الجوهرية لبناء الحضارات الحديثة أو إحيائها والنهوض بها . ولكن المشكلة ليست فى مبدأ التعاون الفكرى ولكنها فى تفهم العناصر الجوهرية فى الحضارات التى تفرض نفسها خيراً أم شراً على حاضر الثقافة العربية . [٢]

ويخيل إلى أن الذين يوجهون الثقافة العربية الآن لم يفطنوا بعد فطنة جدية إلى إصلاح الأسلوب الذى اتخذه بناة الثقافة الجديدة فى الباكستان مثلا ، والباكستان مثل فريد

فقادة الفكر فى الباكستان جماعة استوعبوا استيعابا غير قليل العناصر الجوهرية التى تكون حضارات أوروبا وأمريكا ، فاستبانوا فى نباهة وحكمة عناصر القوة والضعف فيها فنتج عن ذلك هذه النهضة الفكرية والأسس الإيديولوجية التى لم يتأثر بها بعد — مع الأسف الشديد — قادة الفكر فى الشرق العربى . فالايديولوجية فى الباكستان ليست «رجعية» تعيش فى جو من القرون الوسطى كما يصمها بذلك بعض المغرضين من أعداء الشرق وبعض أبنائه . وإنما هى أسلوب فى الحياة والفكر استوحى التوجيه من تراث الإسلام ومبادئه ومن روح الشرق ونظمه الاجتماعية والتأصل فيه من الاتجاهات العاطفية والتكوين النفسى . فحين تبين لمحمد إقبال وغيره من جهابذة الفكر من القارة الهندية أن الإسلام كمذهب وكنظام للحياة الدنيوية برئ من هذا الجمود وهذه التفسيرات الخاطئة وهذا السلوك الشائن الذى كاد يؤدى بالمسلمين إلى الذلة والانحطاط ويقذفهم إلى الانحلال والموت — حين تبين لمسلمى الهند والباكستان ذلك لم يقفوا عند حد الوعظ والإرشاد والنفخ فى أبواق لا تؤثر دعوتها فى صميم النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإحياء الفكرى والعملى ، وإنما استعاروا من الغرب مناهجه فى البحث والتوجيه واقتبسوا عنه أساليب العمل والإنتاج وصاغوا تعاليم الدين الإسلامى فى قالب لا يحيد عن جوهر العقيدة المحمدية ، وإنما يتميز بأنه لا يختلف عن القوالب التى ولدت حضارات عصور النهضة من إيطاليا وفرنسا والبلاد الأنجلوسكسونية . وتبين لمسلمى الهند والباكستان كذلك بأن إنتاج الفكر الأوربى فى الحياة الدستورية وفى التنظيم الاقتصادى وفى التكافل الاجتماعى لا يمكن أن يكون مناقضا للنظم التى شرعها الإسلام ، وإنما هـو فى الواقع متمم له . وجاء ميلاد الدولة الباكستانية فدمج الفكر بالعمل وحقق الأسس الهجرية

(٢) — راجع بحثا لكاتب هذه السطور «دفاع عن الثقافة العربية» فى أعداد الرسالة ٨٩٧ـ٨٩٨ـ٨٩٩ (شهر سبتمبر ١٩٥٠)

للايديولوجية الإسلامية الحديثة على نحو أثار إعجاب العارفين به (٣)

وليس من أهداف كاتب هذه السطور أن يستعرض هنا أسس الإيديولوجية الإسلامية في الباكستان وإنما استشهدبها في معرض الحديث عن البلبلة التي تعترى الحضارة الإنسانية وأزمتها إزاء صراع العقل والروح من جهة، والغريزة البدائية من جهة أخرى ، هذا الصراع الذي أوجد تشويشا فكريا واجتماعيا في كثير من بقاع الأرض منها عالم الغرب

ولنعد إلى قضية الدين والسلوك الإنساني لنقرر حتما في السهل أن هذا الصراع الفكرى يشغل الآن أذهان المثقفين في الغرب وفي أمريكا على وجه الخصوص

فقد نشأ العالم الجديد أول ما نشأ على مذهب التحرر من القيود الثقيلة التي فرضت على العقيدة والسلوك الديني في أوربا . لحملت سفينة (مايفلور) في القرن السادس عشر هؤلاء المضطهدين من القارة الأوربية إلى أرض كولومبوس لتدفع عنهم شر هذه القيود . فأسس الحضارة الأمريكية إذن أسس روحية للدين فيها شأن كبير لاتزال عناصره الأصلية تناضل موجات الإلحاد والانطلاق الغريزي الذي ولده نشوء النظم الاقتصادية الحديثة في أمريكا على النحو الذي شرحه في عمق وبلاغة الكاتب الألماني الكبير (ماكس ويبر)(٤)، وكذلك تسرب الايدلوجية اليهودية وتركزها في صميم الحضارة الأمريكية وعيثها فيه فسادا (٥)

وحرى بالذين استخفوا واستهجنوا دفاع رجال الأزهر الشريف وعلمائه ورجال الدين المسيحيين في مصر عن الفضيلة والقيم الدينية في حملتهم الأخيرة (٦) بأن مثل هذا الدفاع هو من أهم ما يشغل العلماء وقادة الفكر في معاقل الثقافة الغربية التي يتطلع إليها المستخفون من المثقفين العرب ليستمدوا منها الوحي والإلهام والذخيرة لمناوأة هذا الإحياء الروحي الذي نشط له رجال الدين في مصر والشرق العربي

قلت إن أهل الفكر في أوروبا وأمريكا يشغلون الآن بهذا النزاع الحاد بين العقل والروح من جهة ؛ والانطلاق الغريزي البدائي من جهة أخرى وعلاقة السلوك الديني بهما

فبعض أتباع فرويد في إنتاجهم الفني العلمي يرون في السلوك الديني شاهداً ودليلا على الجهل والخوف والتفكك النفساني، وعلما على الجمود الفكرى والشخصية الضعيفة المنطوية التي لا تستطيع ولا تود مواجهة الواقع

ثم هناك ويليام جيمس البروتستانتي وغيره من فلاسفة الكنيسة الكاثوليكية الذين يقولون بأن السلوك الديني القويم ليس رمزا لهذه العقد النفسية؛ وذلك لأن في الفرد غريزة دينية متأصلة تشوب سلوكه دون أن يكون عرضة لكل هذه العقد أو لبعضها، وأن النفس المطمئنة والشخصية الكاملة الناجحة (بمعناها السيكولوجي) لم يتوفر لها هذه الطمأنينة وهذا الكمال إلا لأنها لست مبلغ القوة في غريزتها الدينية فهذبتها بالتروى والتبصر، وأعتها سليمة مستقرة آمنة لا تزعزعها هذه المشاكل الدنيوية النفسية التي لا يخلو منها مجتمع ما بدائيا كان أم حضريا . وتقول مدرسة ويليام جيمس (٧) — ولها اتباع من أئمة علماء النفس المعاصرين — (٨) إن الخوف والبلبلة النفسانية ومشكلة السلوك السيكوباتي ليست إلا وليدة إنكار الفرد على غريزته الدينية حقها ووظيفتها وتجاهله لأهميتها والدور الذي تلعبه في السلوك الإنساني ونفوره من إعانها ورعايتها خالصة مطهرة

ولنقف هنيهة هنا ولنحاول في أعداد الرسالة القادمة إن شاء الله أن ندرس مسألة الدين والسلوك الإنساني على أضواء هذا النزاع لعلنا بذلك نساهم في تفهم هذه المشكلة الاجتماعية التي أخذت حدتها تتخذ طورا مخيفا في حاضر الأمة العربية

« البحث صلة » نيويورك عمر حليق

---

٣ — راجع التقرير السنوي للجنة الأمم المتحدة الاقتصادية لآسيا والشرق الأقصى (القسم الخاص بالباكستان)

The united Nations Economic Survey for Asia & the far East 164.8 1949

Max Weber, The protestant Ethics and the Rise of Capitalism

De Toeqville, American Democracy.

(٥) راجع

The Jews in American Civilization A Symosium

٦ — راجع عدد جريدة المصرى في ١٢-٦-١٩٥٠

William James. Varieties of religious Experience,

O,W.Allport, The Individual and his religion.

الألفاظ الأيوبية
في كتاب تقويم النديم

لصاحب المعالي الدكتور محمد رضا الشبيبي
عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

كتاب (تقويم النديم ، وعقبى النعيم المقيم) ، وبهذا الإسم ورد ذكره في كشف الظنون وفي غيره من فهارس الكتب ، كتاب غير غريب عن المؤتمر ، فقد ورد ذكره في معرض البحث عن المصطلحات الحرفية ، في مؤتمر السنة الماضية ، وهو البحث الذي عالجه الأستاذ ماسينيون في محاضرة لطيفة أشار فيها إلى عناية بعض علماء الشرق بوضع معجم في ألفاظ الحرف والصناعات ، وكانت لي كلمة في التعقيب على المحاضرة قلت فيها إن أول من طرق هذا الباب أديب مصري من أعلام القرن السابع ومن وزراء الدولة الأيوبية في عصر الكامل بن الملك الصالح أيوب ، وهو الأمير فخر الدين يوسف بن حمويه الجويني ، في كتاب له سماه « تقويم النديم وعقبى النعيم المقيم ، » ضمنه جملة صالحة من المصطلحات الحرفية الشائعة في عصره . وما من شك أن الشربيني في كتاب هز القحوف ، والشيخ قاسم الدمشقي في معجمه نسجا على منوال فخر الدين بن حمويه . فهو أقدم أديب عالج هذا الموضوع على كل حال . وقد قلت فيما قلت في تلك الجلسة إني لعلى استعداد لإهداء نسختي التي ظفرت بها من الكتاب إلى مكتبة المجمع أو إلى وزارة المعارف المصرية لأن مصر بهذا الكتاب أولى من العراق . هذا ولما قفلت إلى بلادي بعد انفضاض المؤتمر الماضي بعثت بالنسخة المذكورة فوراً إلى الوزارة المشار إليها ضمن كتاب أرسلت نسخة منه إلى مكتب المراقب الإداري في هذا المجمع ، فوزارة المعارف هي التي تملك حق التصرف في الكتاب الآن .

إلى هذا الحين كنت وكان غير واحد من المعنيين بالبحث عن الأصول القديمة يرون أن نسختنا العراقية هي النسخة الوحيدة من هذا الكتاب ، بيد أني ما زلت منذ نزلت القاهرة في منتصف الشهر الماضي حتى الأيام الأخيرة ، في سبيل التنقيب عن أصول الكتاب في دور الكتب هنا وهناك ، إلى أن ظفرت بنسختين جديدتين ، توجد إحداهما في دار الكتب ، والثانية وهي أقدم خطا وأدق ضبطا في المكتبة الأزهرية ، وإن كانت ناقصة قليلا ولعلها نسخت في عصر المؤلف ، أو قريباً منه ، فهي أصل يعتمد عليه ، لأن كلا من النسختين العراقية ، ونسخة دار الكتب ، سقيمة لا يوثق بكل ما جاء فيها ، وفيهما ما فيهما من النسخ والتحريف والتصحيف .

مؤلف الكتاب مؤلف كتاب تقويم النديم وعقبى النعيم المقيم ، هو الأمير الصاحب فخر الدين يوسف بن صدر الدين محمد شيخ الشيوخ بن حمويه الجويني ، من أعلام مصر في صدر القرن السابع ، ووزير بني أيوب ، ومقدم جيوشهم في عصر الملك الكامل . وآل حمويه بيت مشهور يمت إليه عدد من الأعلام ، وحملة السيوف والأقلام ؛ ويراجع عن سيرة المؤلف وأهل بيته كتب التاريخ والطبقات بين أواخر القرن السادس وصدر القرن السابع . وممن ترجم لمنشئ هذا الكتاب السبكي في طبقاته وترجمته ضافية مستوفاة ، وابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ، وابن أبي شامة في الذيل على الروضتين . وجل المؤرخين المصريين والشاميين الذين عنوا بتاريخ الحروب التي دارت رحاها في مصر بين الأيوبيين والفرنسيين في منتصف القرن السابع وهي حروب طاحنة في بعض وقائعها أسر ملك فرنسة ، وفي واقعة منها وقعت سنة ٦٤٧ قتل مؤلف هذا الكتاب .

قال ابن أبي شامة في حوادث السنة المذكورة ما نصه : « فيها قتل فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ وهو آخر أخوته موتا » ، وفي حوادث السنة عينها من النجوم الزاهرة ما نصه : « توفي الصاحب فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ أبي الحسن محمد بن حمويه الجويني كان عاقلا جوادا ممدحا خليقا بالملك محبوبا إلى الناس . ولما مات الملك الصالح نجم الدين أيوب على دمياط ، ندب إلى الملك فامتنع ولو أجاب لما خالفوه ، واستشهد على دمياط » وقال أيضا « ومن الذين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة ، الأمير مقدم الجيوش فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ صدر الدين الجويني في ذي القعدة شهيداً يوم وقعة المنصورة » وفي تاريخ أبي الفداء وابن الوردي مثل ذلك .

موضوع الكتاب موضوع الكتاب أدبي بل هو سلسلة

نص المحاضرة التي ألقاها الأستاذ بجلسة المؤتمر التي عقدها مجمع فؤاد الأول في يوم الإثنين ١٥ يناير سنة ١٩٥١

طويلة من المنظوم والمنثور ، ولك أن تقول إنه مقامة واحدة من هذه المقامات الأدبية ، لم يراع فيهما التنويع والتقسيم ، فلا عجب إذا اعترى قارىء الكتاب ضرب من السأم ، وإنما قلنا «مقامة» لأن المؤلف استهل الكتاب بقوله «حكى السرور ابن اللذة قال : كنت وشعبة جنون شبابي في عنفوانها ، وصحيفة عمري لم أقرأ منها غير عنوانها» وهذه العبارة شبيهة ببعض عبارات الحريري وغيره من أصحاب المقامات. والمقامة طافحة من أولها إلى آخرها ، بضروب من الإحماض والفحش والمجون الذي لا يستساغ نشره فيما أرى وإن نشر الناشرون ما هو أسوأ منه . وقد حاول المؤلف في مواضع عدة من الكتاب تأكيد سلامة نيته ، وحسن قصده في مجونه وعبثه الفاحش ، وأن ذلك مجرد أقوال لم تقترن بأعمال وأفرد فصولا أخرى في أول الكتاب وآخره للدفاع عن نفسه والاعتذار عن شطحاته وبدواته ، وعرض ببعض خصومه الذين نسبوا إليه الجد ، ورموه بسوء القصد؛ وزعم أنه نسج على منوال البلغاء، فيما وضعوه من الكلام منسوبا إلى الجمادات أو ما عزوه من الحكم إلى الحيوانات مثل ما جاء في كتاب كليلة ودمنة وكثير من المقامات؛ وقد يكون هذا العذر مقبولا لولا أن الجوبرى أسرف والحق يقال وأفرط في مجانته وخلاعته من هذا القبيل ، ومع ذلك فإن وجه الانتفاع بنشر جانب من هذا الكتاب ظاهر لعناية المؤلف بتدوين المصطلحات الحرفية الشائعة في عصره على وجه لم يسبق له مثيل .

في مطاوي كتاب تقويم النديم مجموعة ألفاظ ومصطلحات كانت تدور على ألسنة المصريين في عصر الدولة الأيوبية ، وقد عنى المؤلف عناية خاصة بتدوين هذه الألفاظ أو المصطلحات الأيوبية وإنما قلنا «ألفاظ أيوبية» مع أنها لا تخلو من ألفاظ عباسية أو فاطمية من باب التغليب ، أو لأنها أوضاع شاع استعمالها في العصر المذكور بطريقة الاشتقاق أو التوليد أو التعريب أو بطريق من طرق المجاز أو الاستعارة .

قد يكون حفظ هذه المصطلحات وإضافتها إلى تراثنا اللغوي إحدى غايات هذا الأديب من إنشاء هذه المقامة ، كما كان حفظ أوابد العربية إحدى غايات الحريري من إنشاء المقامات ، وبعض هذه الألفاظ أو المصطلحات من أوضاع المصريين في اللغة أو من مصطلحاتهم المولدة .

والقريض في هذا الكتاب كثير وأكثره من إنشاء المؤلف وهو مدمج في النثر . فالجوبري شاعر وشعره في طبقة نثره . وله طريقة خاصة في اختيار شواهده الشعرية شرحها في آخر كتابه ولا يخلو أسلوبه من تصنع في المنظوم والمنثور .

المصطلحات الحرفية في الكتاب

تصفحت الكتاب فمررت فيه على مجموعة من المصطلحات والألفاظ الحرفية التي شاع استعمالها في دواوين الدولة الأيوبية ، وعلى ألسنة الجمهور والكتاب في مصر وما إليها من البلاد . وقد وجدت أن أصول كثير منها فصيحة بل عريقة في الفصاحة في تلك العصور ، ولم أجد لبعض ألفاظه ذكراً في المعجمات ، إما لأنها ألفاظ مولدة ، أو أوضاع حادثة في العصور الأيوبية ، ولم أنقل كل الألفاظ أو المصطلحات الواردة في الكتاب ، لكثرة المسخ والتحريف في نسختي منه ، وليس في وقتي الآن متسع للمقابلة والتحقيق ، ولذلك عنيت بنقل نموذج من ألفاظ الكتاب مع شرح موجز وإيضاح لمعانيها أحياناً . وأما البحث في أصول تلك الكلمات ونقل مذاهب اللغويين وأحكامهم فيها وفي جواز استعمالها فإن له وقتا آخر والأمور مرهونة بأوقاتها ، وهذه هي مصطلحات الكتاب .

الفلاحة والزراعة وما يتصل بالملاحة

جران ، مشاق ، قلفاط ، جسار ، مرابع ، فلاح ريس قرقورة ، طراح ، منزك ودقاق ، قفاص ، قفاف ، خواص ، تبان ، علاف ، ناخوذاه ربان

جران — صانع الأجران

مشاق وقلفاط — من الألفاظ الداخلة في صناعة السفن

جسار — القيم على الجسر ، وهي شائعة إلى اليوم في العراق فيقولون ، جسار للقيم على الجسر أي (الكوبري) باصطلاح المصريين اليوم ، والكوبري تركية ولا تستعمل في العراق والشام .

مرابع وفلاح : الفلاح معلوم وأما المرابع فالغالب أنه الفلاح أو الأجير الذى يأخذ ربع الغلة ولا أدرى هل هى شائعة فى مصر اليوم أم لا

ريس قرقورة وطراح : قال الخفاجى فى شفاء الغليل قرقور ضرب من السفن تكلموا به قديماً . هذا كل ما ورد فى شفاء الغليل. وقال الجواليقى فى المعرب من كلام العجم ، القرقور ضرب من السفن أعجمى وقد تكلمت به العرب ، وزاد ابن دريد أنه ضرب من السفن كبار ، » وفى اللسان ،قيل هى السفينة العظيمة الطويلة . والقرقور أطول السفن وجمعه قراقير . أما الطراح فالأغلب أنهم كانوا يستعملونها فى العصر الأيوبى بمعنى الملاح وما إلى ذلك

مفرك ودقاق . المفرك هو الذى يفرك الحب، قال فى القاموس أفرك الحب آن له أن يفرك، واستفرك فى السنبلة سمن واشتد ، وفرك السنبل دلكه فانفرك . وأما الدقاق فهو بائع الدقيق قال الفيروزآبادى : الدقيق الطحين وبائعه دقاق ، ومن ذلك يعلم أن أفصح الألفاظ والمصطلحات كانت تدور على ألسنة جمهور المصريين فى عصر الدولة الأيوبية

قفاص . قفاف . خواص : القفاص صانع الأقفاص والواحد قفص وهو الذى يحفظ به الطير وغيره . والقفص أيضاً أداة زراعية ينقل بها البر إلى الكدس ، والقفاف صانع القفاف أو بائعها واحدتها قفه بالضم وهى معروفة كهيئة القرعة تتخذ من الخوص . قال المجد الفيروزابادى : الخوص بالضم ورق النخل ، والخواص بائعه . ومما يستدرك عليه إناء مخوص فيه على أشكال الخوص

تبان وعلاف : التبان بائع التبن والعلاف بائع العلف قاله فى القاموس وهما لفظان شائعان فى مصر الآن

ناخوذاه وربان : ناخوذاه فارسية معربة استعمالها شائع فى العراق من القديم إلى اليوم بمعنى ربان السفينة ولكنهم يقولون الآن « نوخذه » والظاهر أنها كانت معروفة فى مصر أيضاً بالمعنى المذكور على عهد الأيوبيين ، قال المجد الفيروزابادى فى مادة « نخذ » : « النواخذة » ملاك سفن البحر أو وكلاؤهم معربة الواحدة « ناخذاه » اشتقوا منها الفعل وقالوا تنخذ كترأس

الفاكهة والمأكول والمشروب

من ألفاظ الكتاب فى هذا الباب مواز وقماح وتمار ورزاز لباعة الموز والقمح والتمر والرز ومن ذلك لبان وسماك وجبان وسمان وهراس وشواء وقلاء والألفاظ الأخيرة شائعة فى أقطار الشرق العربى إلى اليوم

قراب : الغالب أنه صانع القرب جمع قربة أو من يمتهن سق الماء من القربة وهى صيغة مولدة؛ وجائز أن يكون المقصود به صانع الغمد أو القراب

مزار : بائع المزر نبيذ الذرة أو الشعير

عكار : لبائع العكر وهو الحثالة

بداد : العامل فى البد وهى معصرة الزيت قيل إنها مصرية

البناؤون وما يتصل بالبناء

طواب . عجان خراط جباس . مباط . مرخم . مصور . دهان

طواب : صانع الطوب والطوبة لغة شامية أو مصرية بمعنى اللبن عندنا فى العراق وهو هذا الطين المضروب للبناء

عجان : ورد فى الكتاب مرادفا لكلمة طواب وقد يرد به من يعجن الطين أو غيره من مواد البناء

خراط : من خرط العود إذا قشره وسواه وحرفته الخراطة وهى معروفة بهذا المعنى الآن

جباس وجبال : الجباس هو العامل بالجبس أى الجص والجبال فى العراق هو الذى يجبل الجص ويحمله إلى البناء والكلمة شائعة على ألسنة العراقيين اليوم

المبلط : عامل حرفته فرش الدار بالبلاط؛ والبلاط الحجارة التى تفرش بالدار وكل أرض فرشت بها أو بالآجر، يقال بلط الدار وأبلطها وبلطها فرشها به . والكلمة معروفة الآن فى البلاد المصرية

المرخم : وزان المبلط وهو الذى يعمل فى البناء بالرخام ولا يوجد فى المعجمات، وفى مصر الآن يقولون الرخامى للمعنى المذكور

مصور ودهان معروفان

حرف الجوهريين والمعدنيين

ذهبي . مداد . سكاكيني . براد . مبيض . نحاس . صيرفي . نقاد . مرصص . سباك . حجار . طلاع . نشار . حكاك . قفال

الذهبي : بائع الذهب أو الحلي الذهبية

مداد : هو الذي يمد الذهب أو يبسطه ويسويه، من الأوضاع اللغوية المولدة في عصر الأيوبيين

قفال : صانع الأقفال أو بائعها

البراد : من حرفته برد المعادن من ذهب وفضة وحديد ، وبردها عبارة عن قشرها أو نحتها، والمبرد آلته والبرادة هي سحالة المعادن المبرودة

صيرفي ونقاد : معروفان

مرصص : عامل حرفتــه طلى الأشياء بالرصاص ، قال المجد الفيروزابادي شيء مرصص مطلي بالرصاص

سباك : أصله من سبك المدن أذابه وأفرغه وهي معروفة الآن

مبيض : أصله من بيض ضـد سود والمراد به على الأكثر مبيض المساكن والبيوت بالجص والبورق. وفي العراق يطلقون هذه الكلمة الآن على الماهن الذي يبيض الأواني بالقصدير

الحكاك : يطلق في العراق على من يسوى فصوص الخواتم والقلائد وما إلى ذلك ، ولا يعلم المراد منه في هذا الكتاب

الحرب والسلاح

رماح . زراد . نشابي . قواس . تراس . سياف . صيقـل . مشاعلي . نفاط .

رماح : الرماح متخذ الرمح وحرفته الرماحـــة قاله المجد الفيروزابادي في القاموس ؛ والرماحة أيضاً فرقة عسكرية تحمل الرماح

زراد : الزراد صانع الزرد والزرد هي الدرع المزرودة

النشابي : نسبة إلى النشاب، والنشاب النبل والنشاب بالفتح متخذه وقوم نشابة يرمون به

القواس : صانع القوس أو الذي يتخذ القوس سلاحا له

تراس : صاحب الترس أو صانعه والتراسة صنعته

الحيوان

فهاد . دباب . قراد . لسائس الفهود والدببة والقرود

كباش . حمار : صاحبا الكباش والحمير . قال في القاموس الحارة أصحاب الحمير كالحامرة وهي شائعـــة في أقطار الشرق العربي اليوم

المطير . طيوري : الذي يلعب بالطيور والصيغة الأولى شائعة في العراق اليوم

البراج : القيم على الأبراج . والمقصود بهما هنا الأبراج التي تتخذ للطيور

كلازي : قال في شفاء الغليـــل الكلبزة هي معرفة حال الكلاب السلوقية منسوبة إلى سلوق بأرض اليمن . . قيل إن الكلمة مصرية

بزدار : صاحب البازي أو الخبير بطباعه وإعداده للصيد معرب كما في الصحاح؛ ويقال بيزار وجمعه بيازرة . قال في الشفاء تصرف فيه المولدون حتى قالوا لصناعتـه (بيزرة) أو (بزدرة) كما فعلوا في البيطرة وقد وضعت في هذا الفن كتب يعضها يسمى (كتاب البيزرة) وعندي شيء منها ؛ ويراجع عن هذه المادة كتاب المعرب للجواليق والتذكرة للانطاكي .

ألقاب الخدم

البلان : أصل هذه الكلمة من مادة البلل وكانت شائعة قديماً بمعنى الحمام ذكرت مرتين في القاموس ففي حرف اللام وفي مادة (البلل) قال المجد الفيروزابادي: البلان كشداد الحمام جمعه بلانات، وقال أيضاً في حرف النون البلان كشداد الحمام وذكر في اللام. ومجمل القول أن أصل هذه المادة من البلل ولكن المجد الفيروزابادي لم يخلص إلى رأي معين في أصالة النون أو زيادتها؛ بيد أن الشارح تدارك ما أهمله الماتن. وهاك ما قاله الزبيدي في التاج « البلان » كشداد الحمام جمعه بلانات والألف والنون زائدتان وإنما يقال دخلنا البلانات عن أبي الأزهر ولأنه يبل بمائه أو بعرقه من دخله ولا فعل له. وفي حديث ابن عمر ستفتحون أرض العجم وستجدون فيها بيوتاً يقال لها البلانات من دخلها ولم يستتر فليس منا. قلت

تحقيقات تاريخية

الأمير سيف الدين

تغري بردى الاتابكى

والد الأمير جمال يوسف المعروف بابن تغرى بردى المؤرخ المصرى

للاستاذ أحمد رمزى بك

حينما قدمت دار الكتب الجزء الأول من كتاب « النجوم الزاهرة » ، وضعت للمؤرخ ثلاث تراجم نقلا عن القدماء. الأولى من وضع تلميذه أحمد بن حسين التركمانى المعروف بالمرجى ، والثانية عن الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع للسخاوى ، والثالثة عن شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى وهو متأخر عن ذلك العصر

وقد جاء فى الأولى :

« هو يوسف بن تغرى بردى الأمير جمال أبو المحاسن بن الأمير الكبير سيف الدين تغرى بردى اليشبغاوى الظاهرى أتابك العساكر المصرية ثم كافل المالك الشامية »

وجاء فى الثانية :

« يوسف بن تغرى بردى الجمال أبو المحاسن الأتابكى بالديار المصرية ثم نائب الشام اليشبغاوى الظاهرى القاهرى الحنفى »

وجاء فى الترجمة الثالثة :

« جمال الدين أبو المحاسن يوسف ابن الأمير الكبير سيف الدين تغرى بردى »

فيفهم من هذا أن والده كان أميراً معروفاً من كبار أمراء الدولة المصرية ، والمطلع على تاريخه يستخلص منه أنه شغل أعلى وظائف الدولة ، من يوم أن عين على رأس نوبة الجدارية ثم نقل منها إلى نيابة حلب، ثم حصل على رتبة أمير مائة فأمير مجلس فأمير سلاح ومنها عين واليا أو نائبا للسلطنة فى دمشق ، ثم رفع

والقول للزبيدى — وأطلق الآن البلان على من يخدم فى الحمام وهى عامية

وعاد الزبيدى شارح القاموس إلى شرح الكلمة مرة أخرى فى باب النون فقال: «البلان» كشداد أهمله الجوهرى . وقال ابن الأثير هو الحمام ومنه الحديث : ستفتحون بلاداً فيها بلانات أى حمامات قال والأصل بلالات فأبدلت اللام نوناً »

هذا وفى عصر المؤلف وهو عصر بنى أيوب شاع استعمال هذه الكلمة بمعنى خادم الحمام أو الدلاك. ومن رأى بعضهم أن أصل الكلمة من اليونانية وإلى هذا ذهب اللغوى العراق انستاس الكرملى وليس بشىء؛ إذ لا يخامرنى أدنى شك فى عروبة هذه الكلمة. وفى مصر اليوم يقال للماشطة التى تزين العروس ليلة البناء (بلانة) على ما رواه لى بعض أدباء القاهرة

الوقاف : تطلق هذه الكلمة فى العراق اليوم على الرقيب الذى يقف مع الأجير وهو معناها على الظاهر فى عصر مؤلف الكتاب فهى كلمة مولدة وكلة (الوهين) فى الفصحى تسد مسد هذه الكلمة. قال الفيروزابادى: الوهين رجل يكون مع الأجير فى العمل يحثه عليه

هذا طرف من الألفاظ والمصطلحات اللغوية التى وجدتها فى كتاب تقويم النديم ولم آت على كل ما يوجد فى تضاعيف الكتاب من هذا القبيل أو من الأوضاع اللغوية التى كانت شائعة فى عصر الدولة الأيوبية . فالكتاب مفيد كل الفائدة لمن يعنى بالبحث عن المصطلحات والألفاظ الحرفية فى العربية الفصحى أو فى اللهجات العربية الشائعة فى أقطار الشرق العربى الآن؛ يستفيد منه مضافاً إلى ذلك من يعنى بتاريخ العمران والحضارة فى مصر الإسلامية

هذا ومن رأيي أن وزارة المعارف تحسن صنعاً إذا عهدت بنشر هذا الكتاب بعد تحقيقه وتهذيبه إلى لجنة من اللجان المعنية بنشر المخطوطات النادرة . والغالب أن الوزارة المشار إليها تعنى الآن بالنظر فى وجوه الاستفادة من هذا الكتاب

إلى رتبة الأتابكية ومات وهو على نيابة السلطنة بالشام

واسم « تغرى بردى » عريق فى تركيته ، ومعناه « الله أعطى » أو « عطية الله » وهو مأخوذ من طاأرى فيردى

وقول المؤرخين الظاهرى نسبة إلى أستاذه العظيم الملك الظاهر برقوق

وجاء فى الضوء اللامع نقلا عن ابن خطيب الناصرية أنه « كان عنده عقل وحياء وسكون » ثم ذكر السخاوى أنه انضم إلى الأمير « ايتمش » فى خروجه بالشام ، وأرجح أنه انضم إليه بحكم الجنسية التركية على رغم قرابته لبيت الظاهر برقوق

ولقد دهشت لما قرأت فى ترجمة ابنه صاحب المنهل الصافى والنجوم الزاهرة، وفى كتب الإفرنج والمشتغلين بالتاريخ الإسلامى من المتأخرين ، تفسيرهم لكلمة الرومى باليونانى

١ — فقد ورد فى كتاب تاريخ المماليك للسير وليم موير فى مقدمة المؤلف صفحة ٧ ما يأتى :

« أما أبو المحاسن فقد عاش بعد المقريزى ثلاثين سنة وهو ابن الأمير تغرى بردى الذى كان مملوكا يونانيا للسلطان برقوق »

٢ — وذكر الأستاذ أنور زقلمة فى كتابه عن تاريخ المماليك « أن الأمير تغرى بردى كان مملوكا يونانيا »

٣ — كما جاء فى الصفحة ٣٦ من كتاب الدكتور محمد مصطفى زيادة عن مؤرخى القرن الخامس عشر عند كلامه عن صاحب النجوم الزاهرة لفظ يونانى بين قوسين

وتكلم عن بعض سلاطين دولة الأمراء الجراكسة فى محاضرة له بجمعية الدراسات التاريخية فنسب بعضهم إلى أصل يونانى

وتحميل لفظ الرومى على أنه يونانى لا يتفق مع ماهو متداول فى ذلك العصر لأن أرض الروم هى آسيا الصغرى ، وكان يطلق على سلطان السلمين هناك ملك الروم ،هكذا ورد فى أيام السلاجقة وآل عثمان

ويظهر لنا جليا أن آسيا الصغرى كانت منذ القدم موطنا للشعوب الأسيوية لا الروم ، وفى العهود التى عاش فيها تغرى بردى ، كانت آهلة بالعناصر التركية والتركمانية، حتى قبل مجئ العثمانيين واستيلائهم على ربوعها وأقطارها ، وكان يطلق على المسلمين من سكانها أهل الروم وهم ليسوا بروم، وإلا كان جلال الدين الرومى بمجرد نسبته للروم يونانيا ، وآباؤه وأجداده فى أواسط آسيا، ومكانته فى الشعر الصوفى وأثره فى العالم معروفان

أما تغرى بردى فيكفى استعراض تاريخه واسمه للحكم على تركيته الصافية ، ولا صلة له بالإغريق واليونان

ويظهر من تتبع أحواله أنه كان على صلة وثيقة بالملك الظاهر برقوق ، لأن المؤرخين ذكروا أن برقوق تزوج الأميرة شيرين الطويلة الرومية ، وهى ابنة عم تغرى بردى ، وقد ولدت له ولده الذى أسماه (بلغ ق) ومعناه كما فهمت بالتركية « فتنة » ويظهر أنه ولد فى إبان محنة ألمت بوالده فلما زالت أسماه « فرجاً » بالعربية وهو الذى تولى السلطنة بعده تحت اسم السلطان فرج

وقد صاهر السلطان فرج ابن عم والدته أى الأمير تغرى بردى على ابنته الكبرى ، أما بناته الأخر فقد صاهره عليهن الأمير آقبغا التمرازى الذى جمع بين الأتابكية ونيابة السلطنة ، وصاهره الأمير يشبك بن أزدمر الظاهرى على إحدى بناته الصغار، والذى وصل إلينا عن زوجاته اثنتان

الأولى ابنة الأمير تمرباى الحسنى الذى تولى نيابة سيس ثم حجوبية الحجاب وتوفى سنة ٧٩٢ والثانية ابنة الملك المنصور ناصر الدين أبى المعالى محمد بن حاجى بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون

فأنت ترى علاقات المصاهرة والقرابة والنسب بين الأتابكى تغرى بردى وكبار البيوتات التى كانت فى عصره ، لتحكم على منزلته العالية وأن مكانته فى الصفوف الأمامية ، ولا يمكن أن تسلم أتابكية العساكر الإسلامية لمن لم يكن فى أرومته ، والكلام عنه لا ينفى أن نذكر كلمة عن ابنة عمه الأميرة شيرين زوجة السلطان برقوق ، وهى التى اشتهرت بجمالها وعفتها وكانت الخوند الكبرى فى عصرها ولذلك أسكنها السلطان قاعة العواميد بقلعة

مصر ، كما اتفق أصحاب السير على أنها سارت فى حياتها سيرة محمودة مقترنة بالحشمة والرياسة والكرم مع التواضع الزائد والخير والتمسك بالدين ، وهى ذكرى تملؤنا الكثير عن طيب عنصر أصلها وأصل الأمير تغرى بردى والد صاحب النجوم الزاهرة

ولا يشبع الباحث من سيرة هذه الأميرة الجليلة ، بل إن الحديث عن مآثرها وأياديها على الفقراء وما قامت به من أعمال البر وتجديد الرباطات على طريق مكة وما وقفته من الأوقاف وما أصلحته من المبانى ، طويل لا يتسع له المجال

أما تشعب عائلة تغرى بردى واتصالها بالناس فأمر طويل يحتاج إلى تتبعها وقيد الكثير من السير فى مختلف المراجع ، وأهمها الضوء اللامع الذى أرخ لبعض أفراد العائلة حتى عهد قايتباى إذ ذكر محمد بن سنقر القادرى ابن عمة أبى المحاسن ، وأرخ وفاة ابنة الأتابكى آقبغا التمرازى وهى ابنة أخت المؤرخ

ويظهر من كلام السخاوى أن جامع السلطان برقوق بالصاغة يحتوى على رفات عدد من أولاده وأحفاده غير أولئك الذين دفنوا بمدرسته المشهورة بالصحراء بجوار تربته : كما تبين لنا صلة بيت برقوق بعائلة تغرى بردى وإن كانت أسرة برقوق تنحدر من أصل جركسى عريق والثانية من أصل تركى فى آسيا الصغرى

والذى أقلقنى فى ترجمة الأمير سيف الدين تغرى بردى النسبة الآتية التى جاءت على ثلاثة أوجه : اليشبغاوى الكمشبغاوى والقشبغاوى

والذى أعرفه أنه لم يرد تحت نسبة كش بغا ومعناها « الثور الفضى » غير الأمير سيف الدين يعقوب شاه الكشبغاوى الظاهرى وترجمته فى المنهل الصافى وكان أمير ألف وقتل سنة ٨٠٢ كما له ترجمة فى الضوء اللامع وكان تركى الأصل مقداما جميل الصورة ، حسن القامة ، انضم إلى « ايتمش » وآل أمره إلى أن قتل بقلعة دمشق ، أى بعد أن انضم إلى الحزب الذى كان فيه تغرى بردى ولولا علاقة الأخير بالبيت المالك لكان نصيبه نصيب هذا الأمير أى القتل . ولذا استبعد موضوع النسبة إلى كشبغا هذا .

ولكن ابن الفرات الذى استعمل أولا لفظ كشبغا عاد فاستعمل لفظ قشبغا وإليك النصوص :

عند خروج السلطان برقوق إلى الريدانية ترك بالقلعة من مماليكه نحو الستمائة مملوك عندهم الأمير تغرى بردى من كمشبغا رأس نوبة . صفحة ٢٥٩ جزء ٨

أنعم الملك الظاهر على الأمير تغرى بردى من قشبغا ص٣٠٦ أحد أمراء الطبلخانات بتقدمة ألف

جاءت الأخبار فى ذى الحجة سنة ٧٩٦ إلى الديار المصرية بأن السلطان الظاهر خلع على الأمير سيف الدين تغرى بردى من قشبغا واستقر فى السلطنة بحلب عوضا عن الأمير سيف الدين الكمشبغاوى صفحة ٣٧٨ جزء

فاشتراك الأميرين الكبيرين تحت اسم سيف الدين جعل المؤرخين يخلطون بينهما وينسبون كلا منهما إلى أنه الكمشبغاوى

ويستمر ابن الفرات لغاية ٨ رجب ٧٩٧ حيث يقول خلع الملك الظاهر على الأمير سيف الدين نوروز الحافظى واستقر رأس نوبة صغير ثانى عوضا عن الأمير سيف الدين تغرى بردى من قشبغا

وإلى أن نجد اسم كش بغا الذى نسب إليه أو يشبغا تبقى هذه الشخصية غامضة

أحمد رمزى

المدير العام
لمصلحة الاقتصاد الدولى

الفارابي في الشرق والغرب

ومكانته في الفلسفة الاسلامية

بمناسبة مرور ألف عام على وفاته

— ٢ —

الاستاذ ضياء الدخيلي

بقيت هذه التهمة الشنعاء التي ألصقت بابن سينا؛ فإن الناقدين يرتابون في صحتها وينزهون ابن سينا عنها . والظاهر أنها من نسيج خصومه وحساده ، وقد علق على الخبر ناقله وأظنه صاحب أبجد العلوم — بأنه بهتان وإفك لأن الشيخ مقر لأخذه الحكمة من تلك الخزانة كما صرح به في بعض رسائله، وأيضاً يفهم في كثير من مواضع الشفاء أنه تلخيص التعليم الثاني . وعلق الأستاذ مصطفى عبد الرازق بأن في هذا الخبر خطأ تاريخياً؛ فإن منصور ابن نوح الساماني إنما ولى أمر خراسان بعد سنة ٣٤٣ هـ بعد موت الفارابي، ومع هذا كيف يدعى أنه كافأ الفارابي (١) — وأقول إن الفارابي درس في بغداد وعاش في سورية وزار مصر ولم يعرف أنه أقام في أصفهان وشرق المملكة الإسلامية بعد نبوغه وتألق نجمه في الفلسفة وإن قال العقاد في رسالته عن الفارابي (على أنه يبدو من كتاب الموسيقى أن فيلسوفنا جاس أيضاً خلال خراسان قبل أن يهبط العراق) (٢) فإن الظاهر أن ذلك قبل بزوغ شمس مجده في سماء الفلسفة. أما ما رواه البيهقي ونقله عنه الشهرزوري من أن الفارابي ذهب إلى الري استقدمه إليها كافي الكفاة الصاحب بن عباد وبعث إليه هدايا وصلات واستحضره واشتاق إلى ارتباطه وأبو نصر يتعفف وينقبض ولا يقبل منه شيئاً حتى ضرب الدهر ضربانه ووصل

١ — رسالة الأستاذ مصطفى عبد الرازق (المعلم الثاني)

٢ — رسالة العقاد عن الفارابي

أبو نصر إلى الري وعليه قباء وسخ وقلنسوة بلقاء ودخل مجلس الصاحب متنكراً وكان المجلس غاصاً بالندامى والظرفاء وأرباب اللهو فأضافوا الجرم إلى البواب ورموا إليه أسهم العتاب واستهزأ بأبي نصر كل من كان في ذلك المجلس وهو يحتمي أذى الأيدي ويغضي على قذى الأذى والاستهزاء حتى اطمأنت أنفسهم لمجالسته وأنساهم الشراب ذكره ودارت الكؤوس ومالت الرؤوس وطربت النفوس وحل أبو نصر مزهراً واستخرج لحناً مع وزن نوم المستمعين وصار كل واحد كالذي يغشى عليه من الموت وكتب على البربط (١) زاركم أبو نصر الفارابي واستهزأتم به فنومكم، ثم خرج من الري متنكراً مع رفقة متوجهاً إلى بغداد) (٢) فهذه الأقصوصة إن صحت فإنها تدل على أنه لم يمكث في تلك الجهات مكث تأليف و كتابة، وقد علق العقاد في رسالته عن الفارابي — على القصة بأن ابن خلكان يروى قصة قريبة من هذه على أنها حدثت بين الفارابي وسيف الدولة، ثم قال ولا شبهة لدينا في أن قصة البيهقي أسطورة تمثل خيال الكاتب وفنه دون أن تمت إلى الحقيقة بنسب ، ودليلنا على هذا أن الصاحب إسماعيل بن عباد ولد سنة ٣٠٦ هـ فهو عند موت الفارابي في سنة ٣٣٩ هـ كان صبيا صغيراً ولم يكن له بعد مجلس يضم الندامى والظرفاء

وجاء الأستاذ (أبوريده) من جامعة فؤاد الأول بمصر معلناً ارتيابه وشكه في صحة هذه الطعنة النجلاء الموجهة من خصوم ابن سينا إلى مقامه الجليل — فقال ولا شك أن ما يقوله حاجي خليفة كلام ينبغي أن تتلقاه بالتردد والحذر (٣)

وقد نقل القصة السابقة أيضاً المولى أحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبرى زاده المتوفى سنة ٩٦٢ هـ على الصورة التالية إذ قال (ج ١ ص٢٤١) في مفتاح السعادة —: إن أرسطو بعد ما دون المنطق صارت كتبه مخزونة في أثنه (أثينا) من ولاية موره (شبه جزيرة الموره من بلاد اليونان) من بلاد الروم عند ملك من ملوك اليونان ، ولما رغب الخليفة في علوم الأوائل أرسل

١ — البربط هو العود والمزهر على وزن منبر وجوهر

٢ — البيهقي في تاريخ حكماء الاسلام مخطوط في دار الكتب المصرية

٣ — تعليقات أبو ريده على كتاب دى بور (تاريخ الفلسفة في الاسلام)

المأمون إلى الملك المذكور وطلب الكتب فلم يرسلها فغضب المأمون وجمع العساكر وبلغ الخبر الملك فجمع البطاريق والرهابين (١) وشاورهم في الأمر فقالوا إن أردت الكسر في دين المسلمين زلزلة عقائدهم فلا تمنعهم عن الكتب . فاستحسن الملك ذلك وأرسلها إلى المأمون فجمع المأمون مترجمي مملكته كحنين بن إسحاق، وثابت بن قرة وغيرهما وترجموها بتراجم متخالفة لا توافق ترجمة أحدهم ترجمة الآخر فبقيت التراجم غير محررة إلى أن التمس منصور بن نوح الساماني من أبي نصر الفارابي أن يحررها ويلخصها ففعل كما أراد ولهذا لقب بالمعلم الثاني وكانت كتبه في خزانة الكتب المبنية بأصبهان المسماة بصوان الحكمة إلى زمان السلطان مسعود، لكن كانت غير مبيضة لأن الفارابي كان غير ملتفت إلى جمع التصانيف ونشرها بل غلب عليه السياحة. ثم إن الشيخ أبا علي تقرب عند السلطان مسعود بسبب الطب حتى استوزره واستولى على تلك الخزانة وأخذ ما في تلك الكتب ولخص منها كتاب الشفاء وغير ذلك من تصانيفه، وقد اتفق أن احترقت تلك الكتب فاتهم من يتعصب على أبي علي بأنه أحرقها لينقطع انتساب تلك العلوم عن أربابها ويختص بنفسه، لكن هذا الكلام للحساد الذين ليس لهم هاد (٢) . . انتهى كلام طاش كبرى زاده وقد اختتمه بارتيابه في هذه التهمة أعني احراق ابن سينا للمكتبة ليحتكر علومها ولم ينف أخذ ابن سينا من كتاب التعليم الثاني . قال العقاد في رسالته عن الفارابي أما طاشكبرى زاده فلا يصدق هذه الرواية ويقرر أن منشأها حسد الحاسدين لأبي علي وينفي حاج خليفة أيضاً عن ابن سينا تهمة حرق الخزانة لأن الشيخ أي ابن سينا مقر بأخذه الحكمة من تلك الخزانة كما صرح في بعض رسائله ؛ وأيضاً يفهم من مواضع في كتابه الشفاء أنه تلخيص التعليم الثاني

يقول العقاد وفي الحق أن ابن سينا تقرب إلى نوح بن منصور وطبه واستأذنه في الاطلاع على دار كتبه فأذن له. وابن سينا يصرح أيضاً بأنه كان يقرأ كتاب (ما بعد الطبيعة) لأرسطو دون أن يفهم ما فيه حتى ألقت المقادير بين يديه كتاب الفارابي في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة فاستطاع حين ذاك أن يفهم كتاب أرسطو . وهو يصرح أيضاً في كتاب الشفاء بأنه يلخص آراء القدماء . ولكنا مع هذا نجد في روايتي مفتاح السعادة وكشف الظنون كثيراً من الأغلاط ؛ فمنصور بن نوح لم يكن ملكا قبل سنة ٣٥٠ﻫ أي بعد وفاة الفارابي بأحدى عشرة سنة ولم يكن السلطان مسعود من أحفاده ولم يستوزر ابن سينا وإنما استوزره شمس الدولة في همذان، ولم تكن خزانة الكتب في أصفهان وإنما كانت في بخارى . ومما يرجح الشك في صحة هذه الرواية أيضاً أننا لا نجد عند المؤرخين المتقدمين كتاباً للفارابي باسم التعليم الثاني ١»

والذي يهمنا من كل ما تقدم هو الحقيقة الثابتة التالية التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها وهي أن ابن سينا تخرج بكتب الفارابي، والظاهر أن آثار المعلم الثاني بقيت المعين الصافي الذي ورد منه جم غفير من رواد الفلسفة ، فقد جاء في كتاب (دروس في تاريخ الفلسفة) ٢) عرض لأثر الفارابي في رواد المعرفة في الأجيال الإسلامية، قال المؤلفان فيه (وهناك تلاميذ آخرون اهتدوا بهدى الفارابي واستمسكوا بتعاليمه دون أن يروه أو يعاصروه وعلى رأس هؤلاء الأستاذ الرئيس أبو علي الحسين بن عبدالله بن سينا المتوفى سنة ١٠٣٧ م

ولا غرابة فابن سينا نفسه يعترف بتأثره به وفضله عليه ولقد بلغ من تعلقه بنظرياته أن بذل كل مجهود في تفهمها وأفاض في شرحها وتوضيحها بحيث منحها نفوذاً وسلطاناً لم تنله على يد واضعها ومبتكرها، واثن كان للفارابي فضل السبق فلتلميذه فضل البيان والإيضاح . ولكن (كارل بروكلمان) في كتابه (تاريخ الشعوب الإسلامية) في القسم الثاني الباحث عن الإمبراطورية الإسلامية وانحلالها لم يرض أن يقصر ما دونه ابن سينا على مهمة البيان والإيضاح لأفكار الفارابي بل أعطى كتاباته من

١ ــ مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده

١ ــ الفارابي للعقاد من سلسلة أعلام الاسلام
٢ ــ تأليف الدكتورابراهيم بيومي مدكورويوسف افندي كرم المدرسين في كلية الآداب بمصر ــ ص ١٥٧

المكانة العليا ما دفعه لأن يدعي أنها اكتسحت وجرفت مؤلفات الفارابي من سوق التداول الفكري فقال (ولم تقتصر الحركة الفكرية في بلاط سيف الدولة على الشعر والأدب بل عدتهما إلى العلم أيضاً بروح ملؤها التفهم والإدراك فلمع في سمائه أحد تلامذة أرسطو الكبار أبو نصر الفارابي التركي الأصل الذي أتم دروسه في بغداد . ومع أن مؤلفات ابن سينا استطاعت أن تحظى بسلطان دائم في العالم الإسلامي فالواقع أن هذا الرجل (الفارابي) ليمثل بوصفه أحد تلامذة الفلسفة اليونانية الأكثر استقلالا — ظاهرة بارزة جدا في تاريخ الحضارة الإسلامية) ١

ولا تنكر أن انسحار ابن سينا بآراء الفارابي واجتذابها له خلفا أثراً سيئاً على مؤلفات الفارابي إذ أن ابن سينا شرح أفكار الفارابي بإسهاب وعرضها للناس بثوب جذاب ومظهر أخاذ فأدى ذلك إلى نسيان الناس مؤلفات الفارابي نفسها وانذهالهم عنها بما كتبه ابن سينا حتى قال العقاد في رسالته عن الفارابي (وكان من سوء حظ الفارابي أن جاء بعده الرئيس ابن سينا أو الشيخ الرئيس وتألق نجمه في ميدان الفلسفة كما سطع في سماء السياسة وأفاض الشيخ الرئيس في التأليف وصنف كتباً مطولة اشتملت على مذهب الفارابي في الفلسفة ، وأغنت الناس عن رسائل الفارابي الموجزة وألقت على تاريخه ظلالا من النسيان) ٢

وقد قدمت أن ابن سينا ولد بعد وفاة الفارابي بـ ٣١ عاماً ولكن من الغريب أني وجدت في (الوافي بالوفيات) يقول مؤلفه صلاح الدين بن أيبك الصفدي قال ابن سينا «سافرت في طلب الشيخ أبي نصر وما وجدته وليتني وجدته فكانت حصلت إفادة» ٣ وإني أعلق على هذا الخبر الذي أرتاب في صحته بأن ابن سينا تعلم الفلسفة وهو شاب يافع فقد كان عمره حين تعلمها حوالي الستة عشر عاماً ؟ قال الأستاذ محمد لطفي جمعة في (تاريخ فلاسفة الإسلام) ولم يبلغ أبو علي — السادسة أو السابعة عشرة من عمره حتى طبقت شهرته الخافقين لحذقه في الطب، وقد دعاه نوح بن منصور أمير بخارى لعيادته في مرض ألم به وأعيا حيل الأطباء فعالجه إلى أن عوفي فانبسط له وأسبغ عليه ذيل الرضى وأسبل عليه ثوب النعمة وفتح له خزانة كتبه فوجد بها الطبيب الحكيم خير مجال لرغبة الدرس وأرحب ميدان لطالب العلم واستقى من تلك الينابيع العذبة ماشاء إقباله عليها. وقد حدث أن احترقت خزانة الكتب فاتهم ابن سينا بأنه حرقها رغبة في أن يتفرد بما وعته من الحكمة وخشية أن ينتفع بما حوته سواه، وقد مات الأمير نوح بعد ذلك بقليل عام ٣٨٧ هـ وفي هذا العهد كان قد مضى على وفاة الفارابي حوالى (٤٨) عاما فكيف يسعى ابن سينا للقياه ؟ وهل موت الفارابي حادثة طفيفة يتوقع أن لا تصل إلى مسامع ابن سينا وهو عاشق الفلسفة الدؤوب لتحصيلها؟ ومع ذلك فإننا لا نغلق باب الاحتمال ونجوز صدق الرواية ولا نكذب احتمال عدم اطلاع ابن سينا على وفاة الفارابي الأمر، الذي حمله على أن يعقد عزمه على الاتصال به؛ ذلك لأن ابن سينا في هذا العهد كان يعيش في شرق البلاد الإسلامية في بخارى ، أما الفارابي فقد توفي في دمشق ، فإذا أضفنا إلى بعد المسافة تقطع الأسفار لوعورة الطرق ووحشتها مضافاً إلى ذلك أنه لم يكن الفارابي الفيلسوف المتصوف المنقطع عن الناس بذائع الصيت حينئذ — كل ذلك مما يجوز صدق أقصوصة عزم ابن سينا على الاستمتاع بفضل الفارابي عن كثب وسفره في طلب الشيخ العميق التفكير والقصة على كل حال وحتى مع تقدير كذبها تدل على سمو مكانة الفارابي في أذهان المؤلفين في تلك العصور فهم ينقلون خبر عزم ابن سينا على شد الرحال أو قيامه بالسفر حقيقة للاستفادة من علمه ولا يجدون في ذلك غرابة؛ بل إن فضل الفارابي في رأيهم يستحق أن يقصده رواد العلم من أمثال ابن سينا من أقاصي البلاد فضلا عن أدناها

الكلام بقية

ضياء الدخيلي

١ — إطريق جمعه بطاريق كلاهما بالقاف وهو القائد من قواد الروم والبطريك وجمعه بطاريك كلاهما بالكاف وهو رئيس رؤساء الأساقفة على أقطار معينة والظاهر هو المقصود بقرينة الرهابين الذي هو جمع رهبان بمعنى الراهب ولكن صاحب مفتاح السعادة أورده بالقاف خطأ

٢ — تاريخ الشعوب الاسلامية لكارل بروكلمان

٣ — الفارابي للعقاد

٤ — الوافي بالوفيات

بمناسبة المولد النبوي :

نشأة البديعيات
في مدح الرسول

للاستاذ حامد حفني داود الجرجاوي

لم ينعم نبي في أمته بمثل ما نعم به محمد صلى الله عليه وسلم . ولم ينل نبي من الرضا عنه والثناء عليه مثل ما ناله النبي الأعظم من الثناء والإجلال ، وليس ذلك بعجيب أو مستعظم بعد أن سجل الله له ذلك في محكم كتابه « وإنك لعلى خلق عظيم » .

ومدائح النبي الأعظم لا يحصيها عد ولا يشتملها كتاب فرد كائناً ما كان : وقد حاول العلامة الشيخ يوسف النبهاني أن يحصيها في كتابه « المدائح النبوية » - فعجز - مشكوراً - عن إدراك غايته * .

ولو تتبعنا فن (مديح الرسول الأعظم) منذ صدر الإسلام إلى يومنا هذا لوجدناه نوعين : مديح تقيد فيه ناظموه ببحر معين وقافية خاصة ونمط مصطلح عليه . ومديح لا يتقيد فيه ناظمه ببحر معين ولا بقافية خاصة أو نمط مصطلح عليه وقد سمي النوع الأول « البديعيات » أما النوع الثاني فهو من « المدائح النبوية » العامة .

ولو تتبعنا تاريخ « البديعيات » لوجدناها كلها نوعاً واحداً . التزم فيها ناظموها بحر (البسيط) وقافية (الميم) واشترطوا في كل بيت من أبياتها محسناً من المحسنات البديعية المعروفة على عهدهم ، وقصدوا بذلك تطريز هذا الصنف من المدائح بجميع الصور البلاغية .

* أوضحت هذا العجز في كتابي « تاريخ البديع من القرن الثاني إلى أواخر القرن الرابع عشر » .

ولعل أول بديعية استكملت هذه الشروط كلها « بديعية صفي الدين الحلي » المتوفى عام ٧٥٠ هـ . وقد استهلها بقوله :

إن جئت سلعا فسل عن جيرة العلم ... واقر السلام على عرب بذي سلم
فقد ضمنت وجود الدمع من عدم ... لهم ولم أستطع من ذاك منع دمي (١)

وهي بديعية طويلة تقع في مائة وخمسة وأربعين بيتاً .

ومن ثم جرى الشعراء على منواله منذ القرن الثامن وهم لا يزالون كذلك إلى اليوم الذي أنشأ فيه أمير الشعراء أحمد شوقي بك « بديعية نهج البردة » التي أولها :

ريم على القاع بين البان والعلم ... أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

فكل ما قيل في مدح الرسول - منذ القرن الثامن إلى اليوم - من قصائد منظومة في هذا البحر والقافية ، وذلك النمط الذي يلزم فيه الناظم استخدام المحسنات البديعية يسمى « البديعيات » وواحدتها « بديعية » . ولعلهم لم يختاروا لها هذا الاسم إلا لاستخدام المحسنات البديعية في كل بيت من أبياتها .

فكيف نشأت البديعيات في تاريخ الأدب ؟ الحق أن صفي الدين الحلي لم يكن أمة وحده في اختراع « البديعيات » وإن كان له فضل اختراع التسمية واشتراط قافية الميم واصطناع البديع فيها

ولو أنك استعرضت معي المدائح النبوية كلها لرأيت الجذور الأولى للبديعيات واضحة في جميع المدائح النبوية القديمة التي نظمها أصحابها من بحر البسيط

ولعل « قصيدة كعب بن زهير » المتوفى عام ٢٦ هـ هي أول قصيدة كلاسيكية من هذا النوع أنشدها صاحبها وبين يدي الرسول الأعظم

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم إثرها لم يجز مكبول
وما سعاد غداة البين إذ برزت ... إلا أغن غضيض الطرف مكحول

وفي القرن الخامس نظم العارف بالله عبد الرحيم بن أحمد البرعي اليمني المتوفى عام ٤٨٠ هـ قصيدة من هذا النوع أولها :

(١) بديعية صفي الدين الحلي (نسخة مخطوطة رقم ١٢٨ بلاغة بدار الكتب المصرية) .

خل الغرام لصب دمعه دمه ... حيران توجده الذكرى وتعدمه
وامنح له بملاقات علقن به ... لو اطلعت عليه كنت ترحمه .

واختتمها بقوله مصلياً :

عليك منى صلاة الله أكملها ... ياما جداً عمت الدارين أنعمه
تبدى عبيراً ومسكا صوب عارضها ... ويبدأ الذكر ذاكرها ويختمه .
ما رنح الريح أغصان الأراك وما ... حامت على أبرق الحنان حومه .
وينثنى فيعم الآل جانبه ... بكل عارض فضل فاض مسجمه (١)

* * *

وفى القرن السادس نظم جمال الدين بن يحيى الصرصرى المتوفى عام ٦٥٦ قصيدته ، ولو تأملتها لوجدتها عين ماقاله البرعى بحراً وقافية ورويا وافتتاحا واختتاما . وقد أثبت المنهج العلمى بعد البحث والاستقراء أنه عارضه بها ، حيث افتتحها بما اختتم به البرعى قصيدته :

أغرى المحب بذات الستر لومه ... فبان سر غرام كان يكتمه
أنى يلام على التذكار ذو شغف ... متيم بسهام القلب مغرمه

واختتمها بما اختتم بها البرعى قصيدته :

عليك منى صلاة الله أطيبها ... ومن سلام إله العرش أدومه
وعم بالفضل من واساك فى عسر ... وذب عنك غداة الروع مخدمه
من آلك الغر والأصحاب إنهم ... أفلاك دين الهدى فينا وأنجمه
ومن تلاهم بإحسان فأنت له ... ذخر أبجاهك رب العرش يرحمه (٢)

فلما كان أواخر القرن السابع نظم الإمام شرف الدين محمد ابن سعيد الصنهاجى الدلاصى المشهور بالبوصيرى المتوفى عام ٦٩٤ هـ قصيدته الخالدة المشهورة باسم « البردة » فلم يزد على ما سبقه إليه كعب بن زهير والبرعى والصرصرى سوى (قافية الميم) كما ترى :

أمن تذكر جيران بذى سلم ... مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة ... وأومض البرق فى الظلماء من إضم

وقد كان لسقوط بغداد فى منتصف هذا القرن (عام ٦٥٦ هـ) هزة عنيفة ، كانت من أكبر الهزات التى انتابت جوانب الإسلام فكان لها أكبر الأثر فى الحياة الأدبية . والنفوس دائماً تأبى إلا أن تنتمى إلى قوة قادرة مدبرة تدبرها وتدير شؤونها وترعى حقوقها . وهى لم ترض فى ذلك العصر بهذا الفاتح الغاشم ولا بهذا السلطان الجديد — التتار — الذى كان مخالفاً للكثير من تعاليم الإسلام وتقاليده الراسخة فى النفوس . فلم يكن بد لهذه النفوس المظلومة على أمرها من أن تسلك دوراً جديداً ، يحقق لها معانى الاتزان النفسى ، وليس لتلك النفوس بد من أن تجدد عهودها مع القوة الروحية القديمة لتأنس إليها وتستمد منها قواها الدنيوية وآمالها الأخروية.

وهكذا كان هذا الأثر أسبق إلى نفوس الشعراء قبل غيرهم ، وهم أولى الناس بإظهار أحاسيسهم وإبداء عواطفهم والتعبير عن مشاعرهم المرهفة القوية . ولم يكن هنالك بد من أن يهرعوا إلى مدح المصلح الأول (٢) فنظم الصرصرى (٦٥٦ هـ) والوترى (٦٦٢ هـ) والبوصيرى (٦٩٤ هـ) والمزازى (٧١٠ هـ) مدائحهم الخالدة . فلما جاء الشعراء من بعدهم نسجوا على منوالهم قصائد تشبهها فى الوزن والقافية مراعاة لهذا التقليد الكريم .

ثم جاء صفى الدين الحلى فى منتصف القرن الثامن ودفعه ما فى « بردة البوصيرى » من محسنات بديعية أن يجمل قصيدته ذاخرة بالبديع فسمى مانظمه « بديعية » واختار لها هذا الاسم ، فأصبح علماً تقليديا على كل قصيدة ينظمها صاحبها فى مدح الرسول الأعظم محتذياً الوزن والقافية والمحسنات البديعية ☐

حامد حفنى داود الجرجاوى

دبلوم معهد الدراسات العليا
وأستاذ العربية والتربية بمدرسة المعلمات الراقية بباب اللوق

(١) ديوان البرعى
(٢) المجموعة النبهانية ج٤ س ٤٠ وما بعدها

(١) انظر تشطير « بردة البوصيرى » لأستاذنا أحمد المرزاوى ص٢٢ س ٩
(٢) تاريخ البديع من القرن الثانى إلى أواخر القرن الرابع عشر « لصاحب هذا المقال » ج ١ ص ٩٩
☐ إن كان فى العمر بقية فموضوعنا فى العام القادم « بلاغة البديعيات »

أنطون الجميل باشا

بمناسبة الذكرى الثالثة لوفاته

للأستاذ منصور جاب الله

كانت الرزأة في المغفور له الأستاذ أنطون الجميل باشا أليمة ، إذ قضى نحبه فجر اليوم الثالث عشر من يناير عام ١٩٤٨ ولم يكن بين منصرفه من عمله ووجيمته إلا ساعة وبعض ساعة ، ولم يكن بين وجيمته واحتضاره إلا دقيقة وبعض دقيقة ، وكذلك لم يشأ القدر لهذا الرجل الرزين الرزين العامل الناصب أن يشكو دنفاً أو يضيق به أحد من أهله ومريديه ، فمضى في سمت إلى دنيا غير هذه الدنيا ، ووجد الله فلقاه حسابه .

ولقد وصف أنطون الجميل في حياته وبعد موته بأنه رجل رزين متزن ، والذين لم تكن لهم خلطة بالفقيد يحسبون أن رزانة الرجل إنما كانت مصرونة في زم اللسان والهدوء ، فلا يتكلم إلا بمقدار ، وأنه تجوز به الأحداث الجسام فلا يتحرك لها ولا ينبض له عرق . وما هكذا كان أنطون الجميل الذي عرفنا وسعدنا بعشرته وتتلمذنا عليه ، وإني لأشهد أني عرفت منه رجلا ثائراً لا يهدأ إلا على مضض ، يهدر كالفحل إذا مست كرامته أو نال أحد من نزاهته ، وسيأتي الكلام بعد عن موقفه من أحد رؤساء الوزارة ليدرك الناس أي رجل كان هذا الرجل بين الرجال .

ولقد كان فقيدنا أديباً رقيقاً قبل أن يكون صحفياً بعيد الصوت والشهرة ، والذين علت بهم السن من أمثال كاتب هذه السطور يدركون المكانة الأدبية التي كانت عليها مجلة « الزهور » لمنشئها « أنطون افندي الجميل » كما كان يدعى في ذياك الحين .

ولعل أشهر كتبه وأحظاها عند القارئين كتابه عن شوقي ، فقد كان الجميل أثيرا عند أمير الشعراء ، وكان من جلسائه الذين يأنس بهم ويصطفيهم ، إذ كان بالرجل وحشة فلا يأنس بكثير من الأناسي ، وإنما ينبو به المقام في كل مكان فلا ينطلق في الحديث إلا إذا خلا له وجه صديق أو صديقين كما حدثنا بذلك فقيد البيان المرحوم الشيخ عبد العزيز البشري .

وكان له باع في الترجمة من الفرنسية خاصة إلى اللغة العربية ومنذ ثلاثين عاما نقل إلى العربية كتاب « الفتاة والبيت » ووضع له مقدمة شيخ الشعراء المغفور له إسماعيل صبري باشا ، وكتب مؤخرته شيخ الأدباء السيد مصطفى لطفي المنفلوطي وعرفت وزارة المعارف لهذا الكتاب قدره فأقرته لمدارس البنات

والأدب عند أنطون الجميل غاية لا وسيلة فما كان يدور بخلده يوما من الأيام أن يتكسب منه ، وكذلك قنع أن يكون مترجما في وزارة المالية لقاء أجر صغير ، ثم سما به المنصب حتى استقال من خدمة الحكومة وهو « سكرتير » للجنة المالية

ولتركه خدمة الحكومة قصة طريفة لا بأس من إيرادها فقد قصها علينا بنفسه في مجلس من مجالسه الوثقة إذ غدا عليه ضحى يوم من الأيام المغفور له جبرائيل تقلا باشا وطلب إليه أن يستقيل من وزارة المالية ليعمل رئيسا لتحرير صحيفة الأهرام خلفا للمرحوم داود بركات . فأجاب الجميل « وأين أنا من داود بركات ؟ دعني في عملي هذا ولا تحاول أن « تكشفني » ولا تفضحني بين الناس ! ودام الجدل بينهما ساعة وبعض ساعة بغير إقناع ولا اقتناع ، وإذ سقط في يد تقلا باشا قال لصاحبه : اعطني ورقة بيضاء . ثم مضى يكتب فيها شيئا لم يتبينه أنطون ، وبعدئذ استأذنه في الانصراف فلما سأله عن غايته أجاب بأنه يريد لقاء وزير المالية ، وألحف عليه في الرجاء عن الغاية التي يريد من أجلها لقيا الوزير ، فأجاب تقلا باشا في انفعال شديد : أريد أن أقدم إليه استقالة « أنطون بك الجميل » فذعر أنطون بك وقال لصاحبه ولكنني لم أقدم استقالتي ولم أكتبها . وعندئذ مازحه صاحبه بقوله : لقد كتبت الاستقالة ووقعتها باسم « أنطون » الجميل وسأرفعها بنفسي إلى الوزير ، وما عليك إلا أن تطمن بالتزوير وتطالب بمحاكمتي لأني مزور !

وبكى عندها أنطون الجميل كما لم يبك في حياته ومضى مع صاحبه إلى وزير المالية حيث رفع إليه استقالته ليتولى من فوره العمل في الصحافة حتى أودت به الصحافة !

والحق أن أنطون الجميل سما بالصحافة وأحدث بها تقاليد بقيت ما بقي حيا ، فلما انتقل إلى الدار الآخرة انتقلت معه — وا أسفاه — إلى الدار الآخرة !

ومن هذه التقاليد ألا تتعرض صحيفة لما تكتبه صحيفة أخرى

بالتكذيب أو التفنيد ، وأن ينشر الخبر على علاته دون تذييل أو تعليق وللقارئ أن يفهم منه ما يشاء ، وأن تقدم المصلحة العامة على السبق الصحفي فما يضير الصحيفة المتزنة التي تحترم نفسها أن تروج يوما وتبور يوما مادامت المصلحة العامة لم تمس في قليل ولا كثير . وأذكر في هذا السبيل أني كنت أزوره في ليلة من الليالي إبان أزمة سياسية حادة وجيء له ببرقية مطولة أرسلها مراسل الصحيفة من لندن ، فتصفحها طويلا ، ثم ألقاها إلي قائلا : اقرأ ، فلما أتممت تلاوتها سألني رأيي فيها فقلت « برقية خطيرة جدا » فسألني : أترى من المصلحة نشرها ؟ قلت : لا . فألقى بها جانبا ولم تنشر ، وعلمت فيما بعد أن نفقات هذه البرقية جاوزت مئة جنيه ، وأنها لو نشرت لكان لها شأن أي شأن .

ومن هذه التقاليد ألا تستغني صحيفة من الصحف عن محرر يعمل بها وإن أمسك عن العمل أياما فقد يكون له عذر ، ولكن هذه التقاليد جميعا صارت مع الحسرة والألم في خبر كان !

واختير أنطون الجميل عضوا في المجمـــع اللغوي ، فتهيب الاختيار بادئ الرأي ، ثم لم يلبث أن خب في أعمال المجمع ووضع ، وكان من أشد الأعضـاء مواظبة ومن أشدهم جـلداً على العمل وأكثرهم إنجازاً لما يطلب منه .

ولما عين عضواً لمجلس الشيوخ رأى فيه أعضـاء « المجلس الأعلى » لونا جديداً من البرلمـانيين ، فهو رجل لا يسف ولا يهاتر ولا يعمـد إلى المناورة أو المداورة ثم هو يخالط الأدب بالسياسة فيرتل الشعر في أثناء مناقشة الاستجوابات والبحث في الميزانيات ، ويدعو الوزراء إلى التشبه بأبي الدوانيق أو أبي جعفر المنصور !

بيد أن أنطون الجميل لم يطق البقاء في مجلس الشيوخ زمنا طويلا ، فقد رأى أن عمله البرلماني يتعارض وعمله الصحفي ، وإذ تضارب العملان وتناقضا ، كان لا مناص له من ترك أحدهما ، ولو كان جبرائيل تقلا باشـا حيا وتقدذ لترك العمل الصحفي غير آسف ، ولـكن صاحبه مات وترك الأمانة في يده ، فلامندوحة له من الاستقـالة من مجلس الشيوخ ، وارتج المجـلس الأعلى لاستقالة الرجل وأبى عليـــه قبولها وبذل عنده الشفاعات والوساطات ، وذهب إليه رئيس الشيوخ يسعى كي يعـدل عن استقالته ورجاه ـ مع هذا ـ أن يريح نفسه فلا يحضر كل جلسة ولـكن الرجل العظيم أبي هـذا قائلا : إما أن أؤدي العمل على وجهه وإما أن أدعه لغيري .

وأنعم عليه بالباشوية إثر استقالته من مجلس الشيوخ ، وقال خصومه إنه إنما استقال لينعم عليه بالباشوية وأحدث هذا القول موجدة في نفسه ، وأحسب أنه حدثني في ذلك فقلت له : لا عليك من كلام الناس . فلو لم تكن رجلا ذا شأن ما تحدث عنك أحد !

أما الموقف الذي أذكره له مع أحد رؤساء الوزارة ، فقد مضى عليه أكثر من عشر سنين ، وغيب الذين شهدوه في عالم غير هذا العالم ، ونحن اليوم في حل من إيراده بشيء من الإيجاز فقد جاء أحد « المخبرين » لأنطون « بك » الجميل بنبأ في شهر سبتمبر عام ١٩٤٠ مؤداه أن الجيش الإيطالي اقتحم الحدود المصرية من جهة الغرب ، وتريث الجميل كعادته ، فلم يشأ نشر الخبر لوقته وإنما أرجأه يوما أو يومين ، ثم عرضه على وزير الحربية ، وأجازته الرقابة فنشره ، وإذ بصر به رئيس الوزارة حينئذ ـ وهو المغفور له حسن صبري باشا ـ هاج هائجه ونسي الصداقة الوثيقة التي تربطه بأنطون الجميل وكتب بلاغا « رسميا » قاسي اللهجة لاذع الأسلوب يرمي فيه كاتب الخبر بالتزيد وإثارة الخواطر .

ولم يفعل أنطون الجميل شيئا إزاء هذا التحدي إلا أن أشهد وزير الحربية على صحة الخبر ، ثم بدأ تحديه لرئيس الوزارة فمنع نشر أنباء مقابلاته وحفـــلاته ، وكان ينشر خبر اجتماع مجلس الوزراء مجرداً من ذكر اسم رئيس الوزراء ، ويطوف رئيس الحكومة في البلاد فلا يذكر عنه شيئا ، وتنشر صور الوزراء جميعا وتحذف صورة كبيرهم !

وهكذا ، وهكذا ، حتى ضاق المغفور له حسن صبري باشا ذرعا ، وبذل الوساطات والشفاعات لدى أنطون الجميل ، حتى أنه أرسل إليه يقول : أرجو أن تشتمني في جريدتك وتقول في ما قال مالك في الخمر ، أما أن تهمل ذكر اسمي مرة واحدة فهذا ما لا طاقة لي باحتماله

وتدخل المرحوم عبد الحميد سليمان باشا في المصالحة ، وشرط

أنطون الجميل باشا أن يعد بنفسه بلاغا « رسميا » يدحض فيه البلاغ الأول ، وكان ، وأعاد أنطون الجميل نشر اسم حسن صبرى باشا رئيس الوزارة بعد أن أهمله ثمانية عشر يوما !

* *

ومات أنطون الجميل فى حدود الخامسة والستين عزبا لم يتزوج ، وقيل إنه كان مبخلا ، أو هكذا رماه خصومه ، وقال لنا واحد ممن تجمعه به أسرة القربى إنه خلف ثروة تتجاوز مئتى ألف جنيه ، ولا نعلم مبلغ الصندوق فى ذلك فقد كنا نعرف فى أنطون الجميل أنه يعيش كما كان يعيش المتصوفة الأوائل يأكل بمقدار ويشرب بمقدار ، لا يسرف على نفسه ، وإنما يضيق عليها .

وكان هـذا سر احتفاظه بصحته ، وسر احتفاظه باتزانه ، ذاك الاتزان الذى جعله يوجه الطعنة النجلاء فلا يخطئ الهدف ويضرب الضربة الموجعة فتصمى الخصوم .

فى ذمة الأدب والصحافة ، وفى ذمة التاريخ .

منصور جاب الله

لئيم

للأستاذ ثروت أباظة

جلف غليظ النفس غليظ الجسم .. حقير ساقط الأصل ساقط التفكير .. ولكنه عظيم يجثو له من يراه ، وينحنى لمقدمه من يقدم عليه .. فهو غنى واسع الغنى ، وليس لمن يعرفونه عقل ذاكر يذكرهم ما كان عليه وما صار إليه .. هو غنى ، وهو ذو مكان وجاه ، وهو أيضا ذو عقل مجرم قاس يشرى بماله ويجبرونه حياة كل من يجرؤ فيمد إليه طرفا من عداوة .. أو من يرمقه بنظرة لا ترضيه .

إن رأيته رأيت وجها كالحا تعاهدت قسمات الإجرام أن تتخذ منه مسكنا ؛ وهى فى هذا المسكن أو فى هذا الوجه تنمو مع الزمن وتتكاثر ، لا تترك البيت ولا ترمم ، تملأ ذا النفس الحقيرة من الرائين رعبا وذا النفس الكبيرة احتقارا واشمئزازا .. وما تلازم الرعب والحقارة فى وجه قدر تلازمها فى وجه ذلك الرجل .. يعلو ذلك رأس خلا من الشعر حتى لا تكاد تبين جبهته من رأسه ولا أحب أن يذهب إلى ما قد يذهب من أنه أصيب بالصلع فإن تفكيره الإجرامى لم يكن من العمق بحيث يساقط الشعر كما يقول علماء الجلد من الأطباء . لم يكن صلعا ما بالرجل ولكنه مرض آخر أصابه وهو لم يزل بعد جرثومة لم تكبر لتصبح مرضا .. وقد حاول بماله الدنس أن يتغلب على ما برأسه من خزى فأخفق . لقد لبسه المرض لبسة فنان تكمل ما أودع الله فى رأسه من شر .. كان المرض أشبه بالعنوان للكتاب الصادر من حكومة عادلة تحافظ على الآداب العامة . هو يغطى رأسه بالطربوش إذا أصبح وبالأغطية الكثيفة إذا أمسى ؛ ولكن الأغطية جميعا عاجزة عن ستر ما يريد ستره

هذا هو رأسه إن شئت أن تسمى هذا الشىء رأسا ، ولا بد لك أن تعرف علام ركب هذا الرأس ... لنتجاوز العنق اذ يبدو لى أنه لا يريد أن يبديه لعله يخفى بعض الشىء من رأسه الحقير ، أيا كان الأمر ليس لهذا الشىء عنق ولكن له انبعاجا ضخما شاء الله أن يكون جسما فكان . والعجب أن هذا الانبعاج يزداد فى غير انتقاص وما يضنيه وصاحبه مجبول من الشر ... إن ضايقه شخص قتله ؛ وما ينقصه وصاحبه خالق ولا ضمير له

تلك هى صورته اليوم فلندع القلم يقذف به إلى ماوراء تلك السنين .. لندعه يقذف به إلى تلك الأيام التى كان لم يزل بها جرثومة صغيرة لم تصل بعد إلى تلك الخطورة التى صارت إليها ... ماذا كان ... جربوع أجرب يلهث وراء حمار أبيه بعد أن خاب فى كل شىء ، فإن زار الوالد قريبا له بقيت الجرثومة خارج المنزل لا تجسر على الاقتراب الا ساحبة المطية ثم هى تنطلق خلفها مثلها فكأن الركب ليس والدا وكأن اللاهث ليس ولده .. وكان الأقارب يوم ذاك يأنفون منه ويزورون عنه بجانبهم إذا أتيح له أن يروه وكان من من فى طوره أولاد عمومته يكادون لا يعرفون من أمره شيئا وإن عرفوا فهو لهم لا يصلح لشىء إلا أن يعدو وراء الحمار عدوا بتشديد أو تخفيف كما تشاء كان الغلام اولاد العم او من بنى قرابته يعرف هذا اذا عرفه فيخفيه ولا ينبس بطرف منه الى أحد فإذا شاء للجرثومة حظ سعيد وذكرت فى مجلس لهم فالنكر والاستنكار

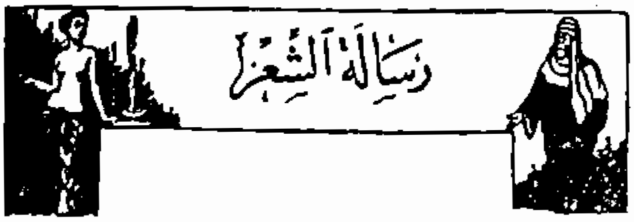
والهزء الذى ليس مثله هزؤ ثم يتعجل أحدهم فينقل موضوع الحديث قبل أن يدخل غريب فينكشف من أمر أسرتهم ما يرجون له الستر. لقد كان منذ ذلك اليوم اسما فى ذكره مجلبة للعار. فليس أبشع من سارق على شبع . لقد كان ذكره مفسدة للخلق، فترى الأمهات اذا ما ذكره أمامهن أحد الخدم قد رفعن أيديهن إلى أفواههن حذرا من أن يسمع الولد الحديث فيفسد حلقه ويشذ عن طريقه ... كان يذكر إذا ذكر خفية فكأنه كلمة لا تقال أمام كبير خشية أن يظن بقائلها سوء الأدب

كان كذلك . ثم نمت الجرثومة كالداء يترك بغير علاج .. نمت فإذا هى المرض لا يشفيه تطبيب .. نمت فأصبح اللص الصغير سفاكا لا قبل للمجتمع به ... ومات أبوه قبل أن يعرف ما انضمت عليه ضلوع الابن من الشر الكبير ... مات الأب فخلا الابن بالحمار واعتسف ما كان لأبيه من أبيه وجمع من حوليه المجرمين من كل ضعيف النفس جائع الشهوة يريد أن يحتمى بالسفاك الأكبر ... وهكذا انقلب الحمار سيارة؛ وأصبحت تقاد له بعد أن كان يشتهى أن يقود

ازداد المال لديه . وأصبح (بيكا) وهو الجربوع . واشتهر من أمر اللص ما حاول أقرباؤه أن يحققوه؛ ولكن سرعان ما تبين للأقرباء أنهم جانبوا العدل فى معاملتهم لابن عمهم . هاهو ذا اسمه يجرى بينهم جريئا لا أحد ينقل الحديث إلى غيره ولا أحد يرفع يده إلى فمه : لقد أصبح الخفاء صريحا وجهر بما كان يهمس به : ها هو ذا أحدهم يقول « والله إنه لخفيف الظل ! لم لا نذهب إليه نسلم ونهنىء ببيته الجديد» ولم يكن المنزل جديداً ولكنهم ذهبوا هام أولاء فى منزله وها هو ذا يرحب بهم فرحا أن قصد إليه من كان يزور عن لقائه ، ولكن الأقرباء لم يجدوا أنفسهم منفردين بل وجدوا معهم وجوه البلاد وأعيانها من حكام وأقطاب باسم الله ما شاء الله ! وغمز أحدهم للآخر « قم فعجل بالقهوة» فأجابه الآخر « وأنت معى قم فعجل بالطعام» وقام : وما لها لا يقومان ؟ لقد أصبح الفقير غنيا! أما كيف كان الغنى فانه لا يهم ... لا يهم

٩ - ٣٦

ثروت أباظة



خواطـــــر لاجئة

للآنسة إلهام يوسف

تحت حرارة الشمس .. ورحمة الرياح.. مرت بى .. وأنا أنتظر ، وأنظر فى صحيفة السيارة لأعود فى معسكر المهاجرين .. لبلدة « غزة » وكان بيننا حديث . فإليها وإلى طفلها الرضيع . هذه الأنات ...

إلهام

قالت .. تسائلنى .. وفى ألحاظها ما يؤلم
ترنو إلى بنظرة وكأنها تتكلم
وعلى يديها قطعة .. ..منها بصمت تحلم
قالت : أترجع .. أخبرينى .. إننى أتضرم
والشوق يحرقنى إلى وطنى الحبيب .. ويسقم
والذكريات تهزنى بحنينها .. وترنم
أمى هناك .. وهل سوى أمى الذى يتبسم ؟
ألمرج يدعونى إليه والذرا .. والأنجم
والشاطئ الباكى على صخر الأسى يتحطم
والمنزل المهجور .. غير رؤى الخيال تهوم
كل ينادينى .. يقول متى نعود .. وننعم؟

* * *

قالت .. ولم أسمع لها .. وكأننى لا أفهم
ورنت إلى .. بلهفة وعيونها تستفهم
ومضت .. وملء مسامعى منها صراخ مبهم

غزة

إلهام يوسف

«أغنيـــة جركسية»

للوزن ﴿ بلاد الأديجة ... بلادنا الجميله
﴿ لا تتخلى عنا ... يا أمنا المحبوبه

بلاد الأديجه تقدمت البلدان ...
نظامهـــا يفوق كل الأنظمة ...
جبالها بالثلوج البيضاء معممة ...
أهلها رقاق الأجسام – رشيقو القوام ...

* * *

غاباتهـــا كالبحـــار غـــزيرة ...
أنهـــارها صافية تروق العيون ...
سماؤهـــا وأرضها فى الجود متساويتان ...

* * *

ذكورنا وإناثنا يتعاملون بالتقاليد ...
يأخذون الآداب عن الطاعنين فى السن ...
هكذا كانت حياتنا يحترم بعضنا بعضاو يحترمنا الغير
وهكذا كان عنصرنا مثاليا فى – الأخلاق ...

* * *

من يتزل عندنا ضيفاً نبالغ فى إكرامه ...
ومن يؤلنا نشهر السيف فى وجهه ...
ولقد حاربنا عدونا الأكبر مائة عام ...

* * *

آباؤنا لمـــا هاجـــروا ...
تركوا وراءهم وجاقات «مداق» البيوت ...
ولمـــا أبقونا صفـــر الأيدى ...
أصبحنا نتخبط على وجه الأرض ...

* * *

لما كنا فى بلاد الأديجه ...
ولما كنا متحمين غير موزعين ...
بقاؤنا فيها بهذه الكيفية كان جل فخارنا ...
نظامنا كان يسمو على العالمين ...

نورنز باكير

١ – أمة الأديجة هى الأمة الجركسية .. والجراكسة فيما بينهم يعرفون بالأديجه

تعقيبات

للاستاذ أنور المعداوى

مشكلتى مع الأستاذ الزيات :

فى الأسبوع الماضى ظهرت التعقيبات فى صفحتين ، وكان من المقرر أن تظهر فى صفحات ثلاث . ومعنى هذا أن الصفحة الثالثة قد تعرضت لقلم الرقيب ، والرقيب هنا ليس إدارة المطبوعات .. ولكنه الصديق الكريم الأستاذ الزيات !

كانت الكلمة التى حذفها قلم الرقيب هجوماً عنيفاً على أحد الوزراء .. ومن الطرائف التى تدخل فى باب المفارقات ، أن الأستاذ الجليل صاحب الرسالة قد أنكر على أن أهاجم وزيراً واحداً ، فى الوقت الذى أباح لنفسه أن يهاجم خمسة وزراء .. خبطة واحدة !!

لماذا أباح لنفسه أن يحاسب عدداً وافراً من أصحاب المعالى ثم حال بينى وبين صاحب معال واحد ؟! هنا تكمن المشكلة ، مشكلتى مع الأستاذ الزيات ، أو مشكلة وضعه الذى يفترق عن وضعى فى محيط الأدب أو محيط الحياة .. إن الصديق الكريم رجل آثر الحرية فابتعد عن الوظائف الحكومية ، وفى مثل هذا المجال الحر يستطيع الأديب أن يقول ما يشاء ، وأن يهاجم من يشاء ، وهو مطمئن إلى أن مركزه الإجتماعى لن يتعرض يوما لعصف الرياح .. أما أنا ، أنا الموظف الرسمى فى الدولة ، فياطالما أشفق على الصديق الكريم من حماسة الشباب وفورة الشباب وما يترتب عليهما من عنف القلم وجيشان العاطفة . يا طالمـــا أشفق على من قيد الوظيفة حين أكافحه بجرأة القول وحرية الرأى وثورة الضمير .. ناسياً أن صداقته الغالية ، تلك التى تحرص على التقاط الشوك من جوانب الطريق ، طريق الذى أفضل أن أسير فيه ، هى وحدها القيد الذى يحد فى من قوة التحفز وحرارة التوثب ومتعة الانطلاق !

إنها مشكلة لن تحل . . وكيف تحل والأستاذ الزيات مشفق مما قد يحدث لى وأنا غير مشفق منه ، حريص على مستقبلى الرسمى وأنا غير حريص عليه ؟ ! إن كل موظف يقرأ الرسالة سيسمح لألف علامة من علامات الدهشة أن ترتسم على وجهه ، وهو يسمع هذا التصريح العجيب من موظف مثله يقاسمه حظاً من حظوظ الحياة . . وليس من شك فى أنه سيقول لنفسه بلغة الواثق المطمئن : لو كان صاحب التعقيبات محتاجاً إلى الوظيفة لما جهر بهذا الذى جهر به ، ولما أذن لقلمه فى أن يعبر كما يريد . . ومن يدرى ، فقد يحلق الزميل القارىء فى كل أفق من آفاق الظنون بكل جناح من أجنحة الخيال ، ثم يتصورنى واحداً من أصحاب الضياع والقصور . لست والله ياصديقى واحداً من هؤلاء . . ولكن إذا اتفقت معى على أن حرية الفكر ثروة ، فلا ضير من أن تسلكنى فى عداد الأثرياء ! !

لقد حدثتك بالأمس عن مشكلة الأداء النفسى فى الشعر ، وحدثتك عن مشكلة الفن والحياة ، وحدثتك عن مشكلة الفن والقيود ، وبقى أن أحدثك اليوم عن مشكلتى مع الأستاذ الزيات . . ولست أدرى أى خاطر طريف هذا الذى يلح على كمقدمة تنتهى إلى نتيجة ، أو كبداية ترمى إلى نهاية : ماذا يحدث مثلا لو تركت أصحاب المعالى وهاجمت الأستاذ الزيات ، مدافعاً عن حريتى التى ظللتها دوافع الود وأواصر الصداقة وروابط الوفاء ؟ ماذا يحدث ؟ ترى هل سيشفق الصديق الكريم على مستقبلى كمحرر فى الرسالة ، بعد أن أشفق عليه وعلى كموظف فى الحكومة ؟ ! هذا هو السؤال الذى ينتظر الجواب . ومع ذلك تبقى النهاية الطريفة المتخيلة التى لم تخطر ببال الزيات ، وهى أن إشفاقه على سيدفعنى يوماً إلى أن أتحرر من أسر الوظيفة ، وما كان أحراه أن يفكر طويلا قبل أن يشفق على ، أن يفكر طويلا فى عواقب هذا الإشفاق !

هذه لفتة أرجو ألا تغيب عن فطنة الأستاذ الزيات . . ولا أحسبنى غالياً إذا قلت له إن مسلكه هذا سيرغمنى يوما على أن أودع مكتبى فى وزارة المعارف لأحتل مكتبه فى إدارة الرسالة ؛ وأستطيع إذا ما أقبل هذا اليوم المنتظر أن أفعل كما فعل فأهاجم خمسة وزراء خبطة واحدة ، وليس بعيداً أن تلهبنى الحرية أكثر مما ألهبته فأهاجم عشرة من أصحاب المعالى بدلا من خمسة . ويا ويل الوزراء من الأدباء الأحرار ! !

نحن والدعوة إلى الحلقة الأدبية :

أنتم معشر الأدباء لستم إلا السراج الذى يقود الأجيال نحو الحياة الروحية الرفيعة ، وأنتم حداة القافلة فى كل عصر ، تجنبونها مواطن الزلل ، وتباعدون بينها وبين موارد الفتن ومزالق الأقدام

هذه هى رسالة الأدباء فى كل جيل ، حتى أننا نقرأ فى الأدب القديم فنجد أن كل أديب كانت له مدرسة تجمع حوله هواة أدبه وعشاق أفكاره ، فيفيض عليهم من أدبه الجم ويغدق عليهم من علمه الخصب ، ويغرس فيهم طريقته فى الكتابة واتجاهه فى الرأى هكذا كان أجدادنا رحمهم الله ... أما أدباء اليوم فيكفيهم أن يطل الواحد منهم من خلال سطور يكتبها بين الحين والحين ، أما أن يتحدث إلى الناس ، وأما أن يجتمع حوله الشباب فهذا أمر دونه خرط القتاد !

لقد انصرف الشباب ياسيدى إلى ما نسميه بالحزبية ، يشغلون بذلك فراغ أوقاتهم ، ويملأون به جدب أذهانهم ، حتى أنك لو جلت جولة قصيرة فى حرم الجامعة لوجدت هذا التطاحن العجيب ، ولشاهدت ذلك الجدل البغيض . وليته كان حول مسألة علمية أو مشكلة فنية أو حقيقة فلسفية . . كلا ، بل هو حول الأحزاب والحزبية ! !

لم لا تجمعون الشباب حولكم ياسيدى ، فيكون لكل أديب ناد ولكل عالم قاعة ؟ لم لا يكون لكل أديب تلامذة فى الأدب يتعهدهم بنفسه لا بكتبه ، ويرعاهم بعنايته لا بمقالته ؟ ويأخذون عن شفتيه لا عن قلمه ؟ لم لا يكون هذا حتى يتزح إليكم الشباب من كل بيئة ، ويقبلون عليكم من كل مكان ؟ وحتى نرى بجانب هذا النقاش الحزبى نقاشاً آخر من نوع جديد ، نقاشاً يدور حول الأدب ومذاهبه أو حول النقد واتجاهاته ؟ !

لم لا تعقدون اجتماعات أسبوعية أو شهرية ياسيدى ، تجمعون فيها هواة الأدب من الشباب ؟ إنكم لو فعلتم ذلك لقدمتم للشباب أجل الخدمات ، لأن الناس لا يقنعون منكم بالتأليف فحسب ، بل هم متشوقون إلى مجالستكم والاستماع إليكم والأخذ عنكم . . نريد منكم أن تفتحوا أبوابكم وصدوركم حتى تخلقوا شباباً

يتعصب للأدب كما يتعصب للمبدأ ، ويشرد من أجل الفكرة كما يشرد من أجل الحزبية ، ويؤمن برسالة الأديب كما يؤمن برسالة الزعيم ؟ أما أن تكتبوا لنا وبينكم وبين الناس حجب وأستار ، فسيان عندهم قراءتهم للحديث وقراءتهم للقديم . ولا عجب أن تكون شكوا كم حارة من قلة القراء !

محمد محبوب عمر
كلية دار العلوم

نريد منكم أن تفتحوا أبوابكم وصدوركم حتى تخلقوا شبابا يتعصب للأدب كما يتعصب للمبدأ ، ويشرد من أجل الفكرة كما يشرد من أجل الحزبية ، ويؤمن برسالة الأديب كما يؤمن برسالة الزعيم . . بهذه الكلمات الجيلة الصادقة يختم الأديب الفاضل رسالته ، وينتظر من هذا القلم رداً يقوم مقام التعقيب .

إن ردى على الأديب الفاضل هو أن أقول له : إننى أؤمن بهذا الذى تؤمن به ، وأدعو الله أن يملأ بمثل هذا الإيمان نفس كل أديب . . إن الأدب الحق يا صديق لا يعرف الأبراج العاجية ، تلك التى تقطع كل صلة بين صاحبها وبين الناس . وما هى رسالة الفن إذا لم تكن مشاركة وجدانية بين الفكر وبين مشاهد الحياة ، وبين النفس وبين مشاعر الأحياء ؟ وما هى قيمته إذا عجز عن أن يربط بين القلوب بتلك الخيوط الإلهية غير المنظورة ، تلك الخيوط التى تنسج أثواب الحق والخير والجمال ؟ ! إن الأدب ديمقراطى عند الذين يحسنون فهم الديمقراطية ، ويقدرونها على أنها لون قريب من الألفة والتعاطف والإيثار . وهكذا أفهم الأدب وهكذا أقدر رسالته ، وما تعودت يوما أن أغلق منافذ السمع والشعور فى وجه كل صيحة تهز فجاج النفس وتزحم مسارب العاطفة .

إن لى فى « الرسالة » بابا هو باب التعقيبات ، كم فتحته على مصراعيه لكل قارئ وكل أديب ، ولى فى « وزارة المعارف » باب آخر كم فتحته لكل طارق وكل غريب ، ولى فى « الجيزة » ندوة أدبية يقصدها هواة الفن وعشاق الأدب من هنا وهناك . . وما أكثر زوار الندوة وطراق البابين من القراء والأدباء ! أنا يا صديق لست من أصحاب الأرستقراطية الأدبية حين ألقى الناس وجهاً لوجه أو حين ألقاهم بين السطور والكلمات ، وإذا كان غيرى يميل إلى هذه النزعة فهو ميل مركب النقص حين يسعى وراء شىء من مركب التعويض . . ولست من متصنعى الأستاذية الظاهرية حين يجلس إلى أديب زائر دون معرفة بيننا ولا سابق لقاء ، لأن الأستاذية لا تكتسب بالمظهر المتكلف ولا بالسمت المزيف ولا بالوقار المصنوع ، وإنما تكتسب باللمحة الواعية والفكرة الخالقة والذهن اللماح !

على الأديب الفاضل إذن أن يطمئن إلى هذه الحقيقة ، وهى أن ديمقراطية الأدب بعيدة كل البعد عن تلك الحجب الصفيقة وما يشبهها من أستار ، وأنها إذا تقبلت الأستاذية فإنما تتقبلها مدثرة بوشاح التواضع العلمى حين يكون هدفه البحث الصادق والتوجيه الأمين . أما عن تساؤله لماذا لايكون لكل أديب ندوة ولكل عالم قاعة ، فلعل الحياة الأدبية والعلمية فى مصر لم تبلغ من النضج واكتمال الأداة ما بلغته فى بعض البلاد الأوربية ، سواء أكان ذلك فى ميدان الأدب أو العلم من ناحية أقطابه أم من ناحية طلابه ، وليس من شك فى أن تعادل الكفتين هو الكفيل بتحقيق هذا الأمل الذى يداعب خيال الأدباء ، والذى نرجو مخلصين أن يتحقق فى مقبل الأيام !

شكاة من الأزهر :

إن أحزن على شىء فلا أحزن إلا على نفسى كأزهرى يحلم بمستقبل بسام ، ويرنو إلى مدارج العزة التى يريد الوصول إليها بوسيلة علمية مفيدة !

وكيف لا أحزن يا صديق وأنا صديان لا أجد المورد العذب الذى يشفى غلتى ، وأنا ناقص البناء أبحث عن اللبنة التى تتمم هيئتى فلا أجدها ، وأنا حائر بين مفترق الطرق وعواصف الآراء لا أدرى إلى أين المفر ؟ !

نعم ، لا تعجب يا صديق . فأنا طالب بكلية أصول الدين أدرس العقيدة دراسة أشد تعقداً من ذنب الضب . . لا أكاد أصل إلى نتيجة فى بحث إلا وأجدها مهددة باعتراضات بيزنطية أشد فتكا بالمعقول من القنابل الذرية ! ثم ماذا ؟ لاشىء ، لاذخيرة ، لا علم يساير العصر ولا فكرة تستطيع أن تقف على قدميها لترد كيد الطوائف ، تلك التى وجدت لتنخر فى عظام الإسلام . .

فهناك طائفة الوهابية وطائفة الإسماعيلية وطوائف أخر ، تتحدى وتنذر وتبذر بذور الشك فى عقيدة المسلمين على مرأى ومسمع من علماء الإسلام الذين أطالبهم ويطالبهم معى آلاف الشباب الأزهريين بأن يضعوا حداً لهذه المهزلة العلمية ، وأن ينتجوا إنتاجا يتحصن به أبناؤهم الأزهريون وغيرهم ضد هذه التيارات المتباينة والآراء الخطيرة !

ولست بأول من جهر بهذا الرأى فقد سبقنى إليه أساتذة أجلاء أذكر من بينهم أستاذى الدكتور محمد يوسف موسى ، ولكنى أجهر به ونار الواقع تلهبنى ، ويكاد الأمل البسام أن يفلت منى !

ولقد حظيت بقراءة كتاب من وضع الاستاذ الكبير الشيخ أبو زهرة فى قسم الزواج وهو مقرر بكلية الحقوق ، فعجبت أيما عجب ، وقلت فى نفسى المكلومة أمام شباب جامعى ، أيدرس هذا الشباب الجامعة المدنيين ؟! .. وكلية الشريعة تدرس بحوث الدماء الثلاثة ، وتضيع وقتها فى باب العتق والطهارة ، والقواعد التى لا قبل لها بتطبيقها على مسائل الظروف الحاضرة ؟!

وقلت فى نفسى أيضاً وهى تنفطر : لماذا لا يجتمع علماؤنا على خير ؟ لماذا لا يحققون المسائل العلمية ويطبقونها على مقتضيات العصر ؟ لماذا لا يسيرون فى موكب الحياة ؟ ثم لماذا هم لا يقدمون ! ترى هل يطالعنا الأستاذ المداوى برأى فى هذه المشكلة ؟ إننا لمنتظرون .

محمد ابراهيم الخطيب

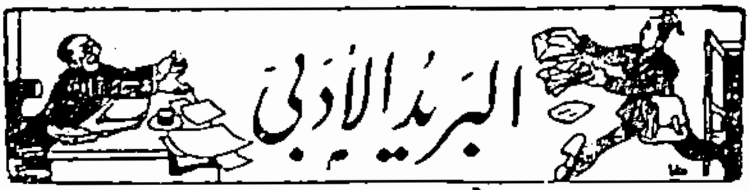
(كلية اصول الدين)

يريد منى الأديب الفاضل رأيا فى هذه المشكلة .. أشهد أن لدى بدلا من الرأى الواحد مجموعة من الآراء . وحين أمسكت بالقلم لأسجل آرائى حول هاتين الناحيتين . لماذا تعثر الأزهر وكيف ينهض الأزهر ، توقفت .. توقفت لأننى رجعت إلى نفسى ورجعت إلى الواقع ، وتذكرت أن هناك مشكلتين لا جدوى من الكتابة فيهما بعد أن بحت الحناجر وجفت المحابر وضجت الاقلام .. الأولى هى مشكلة القراء والثانية هى مشكلة الأزهر !

أريد أن أقول إننا لو كتبنا ألف مقال لنحث الناس على القراءة فلن يقرأ الناس ، وإننا لو كتبنا مثل هذا العدد أو زدنا عليه لنلفت المسئولين إلى إصلاح الأزهر فلن يصلح الأزهر .. حسبنا إذن أن نترقب معجزة من السماء تنهى المشكلتين بعد أن أخفقت جهود البشر . ويا له من أمل ذلك الذى نتطلع إليه وقد انقضى زمن المعجزات !!

حسبنا هذا ، وحسب الأديب الفاضل أن يكتفى منا بهذا التعقيب ، وحسب القراء أنهم استمعوا لهذه الشكاة من هذا الطالب الحزين !

انور المعداوى



طه حسين الشاعر

أتاح لنا حضرة الباحث المطلع الأستاذ محمد سيد كيلاني فرصة التعرف على جانب هام في أدب معالي الدكتور طه حسين باشا في العدد الماضي من الرسالة الزهراء. فشرح كيف قرض الدكتور الشعر في الصبا والشباب، ودلنا على ما كان يفيض به ذلك الشعر من بدوات وأحاسيس، وما يزخر به من نزعات دينية ووطنية وحب وشكوى إلى آخر المقال القيم

ويختتم الأستاذ كيلاني بحثه بقوله: « ولكن الشاعر منذ سافر إلى أوربا في عام ١٩١٤ لم نر له ولا بيتاً واحداً. فقد هجر القريض هجرا تاما. ونسى الناس هذا الشاعر الموهوب، بل ربما يكون هو نفسه قد نسى شعره »

والذي أفهمه جيداً أن معالي الدكتور طه حسين باشا لم يهجر القصيد هجرا تاما بعد عام ١٩١٤، فالناظر في كتابه الرائع « على هامش السيرة » لابد واجد شيئا غير قليل من شعره الجميل منبثا بين ثنايا النثر، وهو أمر لا يلمحه غير شاعر أو عروضي...

وأذكر أن الأستاذ دريني خشبة أول من لفت الأنظار إلى تلك الناحية في أثناء كتابته عن الشعر المرسل، ولولا وجودي الآن بعيدا عن القاهرة لأوردت البرهان القاطع، وفي الذاكرة من شعر الكتاب المذكور هذا البيت:

أقبلت تسعى رويدا   مثلما يسعى النسيم

هذا وللأستاذ كيلاني تحياتي وإعجابي

كلية الآداب   **محمد سلام مصطفى**

طهروا الأزهر من الحزبية:

يا أولى الرأي في الأزهر ويا أصحاب الفضيلة، هبوا فأنقذوا الأزهر من هذه الوهدة المترعة بقذارة النزعات وفاسد الرغبات، ألا وهي الحزبية العمياء التي بذرت في نفوس أبنائه بذور الشقاق، فتشتتت صفوفهم وتفرقت كلمتهم، وصاروا لا يعملون إلا بوحي القادة ولا يسيرون إلا على هدى الزعماء، وأسدلت هذه الحزبية البغيضة على عقولهم وقلوبهم ستاراً كثيفا من ظلماتها الحالكة، فنسوا أنهم رجال الدين وأن عليهم واجبا نحو وطنهم وأنفسهم، وأن ما يجري بينهم ليس خليقا بهم ولا جديراً بأمثالهم، وأنهم بذلك قد فقدوا وازع الخلق، ومزقوا دستور النظام ووطئوا بأقدامهم قداسة الدين وحرمة العلم

أليس عجيبا — أيها الأزهريون — أن يصير الطالب خصما لدودا لأخيه إذا أبصر به في الطريق ازور عنه ونفر منه، فهل بهذا الوضع يرجى من أمثالهم عدة للوطن، ورجالا يعملون لإعزاز مكانته ورفع لوائه. وأعجب من ذلك أن تتعدى هذه الشحناء إلى معارك يتبادل الطلاب فيها ضرب الهراوات التي يتخذونها من مقاعد العلم التي تندب طالعها السيء وحظها المنكود

وإنها لمأساة كبرى أن تنقلب معاهد العلم ومنابع العرفان إلى أمكنة يسري فيها الميب الداء وتصطلي بنار الفوضى والاضطراب، ولا تلقى من أبنائها إلا بعدا عن العلم وفرارا من الجد وجريا وراء الرغبات الحزبية والمنافع الشخصية، وحبا في إحداث المشاغبات وعدم سير الدراسة في هدوء حتى أننا — وأيم الله — من ابتداء هذا العام إلى الآن لم نحضر أسبوعا كاملا بدون إضراب. فياقوم « لن يستقيم الظل والعود أعوج » فهيا طهروا الأزهر من هذا الوباء وقوموا هذه النفوس الحائدة عن سواء السبيل وألجموا هذه النزعات الكاذبة فهي بلاء مستطير وشر خطير. وليس من الواجب أن يترك هذا الجيش الأزهري يتخبط في دياجي هذه الحزبية وغياهبها فغبة ذلك لا يحمد أثرها ولا يستطاب ثمرها

وأنتم أيها الشباب فيئوا إلى أنفسكم وحاسبوا ضمائركم، واتقوا ربكم وثقوا أن مطالبكم لن تحقق إلا بالاتحاد قوتكم وعزيمتكم وترك هذه الحزبية وراءكم فهي قد باينت رغباتكم وفرقت قلوبكم ونفوسكم، وإن كانت مطالبكم لم تحظ من الأداة الحكومية إلا بالنسيان والوعود والإهمال

وجاهدوا فالله معكم ولن يتركم أعمالكم

م. ع. الدسوقي

معهد طنطا الثانوي

انصر أخاك ظالماً أو مظلوما

جاء فى البريد الأدبى من الرسالة الغراء (٩١١) الصادر فى ١٨ ديسمبر كلمة موجزة للأستاذ عبد العظيم عطية هاشم اعترض فيها على جزء من كلامى : (شعر الحماسة عند العرب) المنشورة فى الجزء (٩٠٩) من الرسالة الغراء.

فقد ورد فى كلامى بصدد العصبية الجاهلية ذكر المبدإ الجاهلى : (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) فقال عن ذلك (ولا أرى معنى لإيراد هذا الحديث الشريف فى هذا المقام ... وأضاف أن ذكره (خروج بالحديث الشريف عن معناه وانحراف عن قصده ومرماه) ثم عزز قوله برواية الحديث عن البخارى ولم تفته الاستفادة من بلاغة الصمت فذكر الحديث من غير تعليق

إن عبارة : (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) كلة جاهلية بمعناها السافر قبل أن تروى حديثاً بعد تخريجها تخريجاً سليماً يلائم نظم الإسلام . قال الأستاذ صاحب الرسالة فى بحثه أحوال العرب الاجتماعية : (أما علاقة أبناء الأسرة بأبناء القبيلة جماعها (بضم الجيم وتشديد الميم) مدلول هذه الكلمة الجاهلية : (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً (١))

وذكر الميدانى هذه الكلمة فقال : (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) يروى أن النبى (ص) قال هذا فقيل يارسول الله هذا نصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً ؟ فقال (ص) تردّه عن الظلم. قال أبو عبيدة أما الحديث فهكذا. واما العرب فكان مذهبها فى المثل نصرته على كل حال . قال المفضل أول من قال ذلك جندب العنبر من تميم «٢» ثم ذكر قصة أرتجاله ولا حاجة لذكرها وأحسب أن الدكتور أحمد أمين يشير الى هذه الكلمة الجاهلية فى بحثه عن حالة العرب الاجتماعية بقوله . (وافراد القبيلة متضامنون أشد ما يكون التضامن ينصرون أخاهم ظالماً أو مظلوماً «٣»)

والظاهر أن هذه الكلمة من منحول الحديث فمن الصعب أن نصدق أن الرسول الكريم وهو سيد البلغاء يستعير كلة جاهلية. أما ما يبعث الشك فى صحتها فهو اختلاف رواية الميدانى عن رواية البخارى فقد ذكر الميدانى (تردّه عن الظلم) وذكر البخارى : (تأخذون فوق يديه) ولم أجد فيما راجعت من المعاجم (بأخذ فوق يده) وإنما المذكور (بأخذ على يده أى يمنعه) . ثم ما حاجة المسلمين إلى مثل جاهلى لايلائم نظم الدين الحنيف إلا بعد التخريج والتوجيه وعندهم قول القرآن الكريم : (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) ؟

والظاهر أن نسبة الحديث إلى أنس وهو صحابى كريم استدراج لتصديق الناس . قال الدكتور محمد حسين هيكل : (ومع ما أبداه جامعو الحديث من حرص على الدقة لاريب فيه فقد جرح بعض العلماء كثيراً من الأحاديث أثبتها جامعوها على أنها صحيحة . قال النووى فى شرح مسلم (قد استدرك جماعة على البخارى ومسلم أحاديث أخلابشرطهما فيها ونزلت عن درجة ما التزماه(١)) يقول النووى فى كلامه السابق قد استدرك (جماعة) على البخارى ومسلم واستدراك هؤلاء الجماعة شئ معقول فقد روى البخارى سبعة آلاف حديث فإذا أسقطنا المقدار المكرر وهو ما يقرب من ثلاثة آلاف حديث فإن الباقى أربعة آلاف حديث وهو رقم بعيد لايصله البخارى ولا غيره إلا بعد قبول كثير من منحول الحديث

وقد عارض القرآن الكريم روح العصبية التى أشار إليها المثل وخفض منها بالتدريج إلا أنها لم تستأصل فقد بدأت أن تنتعش منذ أيام عثمان وظهر أثرها واضحاً فى معركة مرج راهط فقد كان أغلب جيش الضحاك بن قيس الفهرى قائد ابن الزبير من عرب الشمال وكان الكلبيون جنود بنى أمية من عرب الجنوب فثارت الحزازات المستورة وسرح الشر من عصبية كامنة امتد أثرها حتى جعلها المؤرخون من أسبا هزيمة الجيش العربى فى فرنساب

وذكر الدكتور فليب حتى (أن هذه الخلافات العصبية ظلت حتى الأيام الحديثة قائمة فى لبنان وفلسطين إذ روى لنا التاريخ أن معارك قامة بين الحزبين : (الشماليين والجنوبين) فى

(١) حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل ص ٥٠ مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٥٤ هـ

١) تاريخ الأدب العربى للزيات ط ٥ ص ٩ مطبعة الاعتماد ١٠٣٠
٢) مجمع الأمثال للميدانى ج ٢ ص ٢٩٦
٣) فجر الاسلام لأحمد أمين ج ١ ص ١٢ مطبعة لجنة التأليف والترجمه والنشر ١٩٣٥



دمعة فاجر !

للاستاذ عبد اللطيف الشهابي

« ... إلى الذين تاهوا فى فلوات الغى والضلال .
إلى الذين ابتعدوا عن المورد العذب .
إلى فرسان الضباب . . أقدم هذه الأنشودة ! ! »

يالى من عربيد فاجر ! .

كنت أجرى وراء اللذات ، أينما حلت وحيثما ارتحلت ، كنت أشتريها بأى ثمن كان، فأندفع إليها اندفاع الطائش المغرور ، وأنا غائص فى الأوحال . أعمى من رماد الزمن . . تصرعنى الجذوة الحمراء وهى تلح فى ذروة سعيرها ! .

رافقت الشيطان فى رحلاته ، ورقصت معه على أشلاء الفضيلة ونحن نردد أغانينا المحبوبة : فى رقصتى عطر وكأس وجسد ! .

كنت أقضى الساعات والليالى بين صخب وعربدة ومجون ، بين قصف ورشف وأنغام . . تبهرنى الأضواء الساطعة ، وترسل صداها فى نفسى ، فتتركنى مغموراً بدنيا أسرارى ، بدنيا لذاتى متطلعاً بلهفة قاتلة ، لعلى أفهم كنه ذلك السر المجهول !

كنت أسير عواطفى ، أتقلب بين شك ويقين ، بين كفر وإيمان ، بين حيرة ورشاد . . أندفع بكيانى رغم كل شىء ، فتتراءى لى من بعيد ، من هناك : أخيلة وهواجس ، رؤى وأحلام ، أنوار وسراب . . فأتسرب فى المجهول وأنا غير هياب . أفتش عن سر دفين ، عن تلك القوة الهائلة التى تجذبنى قسراً إليها ، فتحطم أغلال إرادتى . . فأندفع اندفاعة طائشة ، وأنا أرتجى الخطوة ، أرتجى الأمل الذى يتراءى لى من بعيد — كما أتصور ذلك — فبقيت فى حيرتى هذه بين مد وجزر ، أفتش عن كل شىء ، أريد كل شىء . . ماذا أريد ؟ ! أريد طريق ! . وأى طريق ؟ ! طريق القهقرى ؛ طريق الوعر اليابس ! ! أريد مواكبى ! . وأى مواكب ؟ ! مواكب الذكرى ، مواكب الشباب النضر ، مواكب التوبة . . ولكنى كيف ؟ ! وقد فاتنى الشباب ، وفاتنى الركب بل غابا عنى واندثرا فى فجاج الماضى البعيد ، وقد غصت فى الأوحال ، واندفعت فى الخطيئة إلى أبعد مراميها !

أجل كنت هكذا . . لا أعرف سبيل التوبة ولا طريق الغفران . . قل عنى ما تشاء أيها القارئ . قل إنى فاسق حقير سافل ! ولكن تمهل قليلا حتى أسرد لك هذه القصة التى بدلت وجه حياتى . هذه القصة الفاصلة بين لذتى وزهدى بين غوايتى وهدايتى ! . بين أغنية الشيطان وبين تسابيح وغفران ... هى قصة حياتى أقصها كما هى

« ... حثثت خطاى الحر . والجذوة الصارمة تفتك بى وتدفعنى بقوة هائلة . . إلى هناك ، إلى أحد تلك البيوت السرية المنتشرة فى الجانب الغربى من بغداد . وكان معى صديق عزيز ، يشاركنى وأشاركه فى كل شىء لا يتركنى فى أى لحظة ... وسار ... من هو ؟ — إنه ... الشيطان ، ذلك الدليل الخبير !

أوائل القرن الثامن عشر [(١)])

وليست هذه العصبية وقفاً على العرب دون سواهم وليست هى خاصة بعصر من العصور أو قطر من الأقطار دون غيره فقد رأينا كثيراً من الغربيين فى الشرق يجعلون التعصب الأعمى لأبناء وطنهم على غيرهم دستوراً فى حياتهم ومعاملاتهم

وأضاف الأستاذ عبد العظيم إلى الكلمة الأخيرة من اسمى الكامل كلمة (عبد) فصيرها (عبد الرحيم) وهذه الإضافة أما من استبداد السهو بالقلم أو أن الأخ يرى كلمة (رحيم) من الأسماء الحسنى لا يجوز أن يسمى بها شخص من غير تعبيد . وعلى الاحتمال الثانى أقول أن (رحيم) بمعنى الفاعل من أسماء الله الحسنى وبمعنى المفعول من غيرها فانتفى الحرج . وقد ورد فى مختار الصحاح وغيره : و(الرحيم) قد يكون بمعنى المرحوم كما يكون بمعنى الراحم)

وأحمد للأستاذ هذا الاهتمام وأشكره

الحلة (العراق) — أحمد حسن الرحيم

(١) تاريخ العرب للدكتور فليب حتى . الكتاب الثالث ترجمة الأستاذ محمد مبروك نافع ص ١١٣ مطبعة النجاح بغداد ١٩٤٦

أجل سار معي إلى هناك في طرف بعيد منمزل، في محلة حقيرة من المحلات، يطلقون عليها اسم « محلة الذهب »، ولا أدري من أسماها بهذا الاسم ؟! ولم أطلق عليها هذا النعت ؟! ألأن الذهب يسيل من أصابع روادها، فيغور ويختفي في خزائن أهلها ؟

ودخلنا أحد الواخير، أنا ودليلي ... دخلنا متلصصين، دخلنا نطلب اللذة ونغوص في الآثام !

وفي غرفة حقيرة، تكاد تكون مظلمة، لولا ضوء خافت يتأرجح من مصباح زيتي معلق في ركن من أركانها: جلسنا هناك على أريكة متداعية، راحت تئن تحت ثقل أجسامنا ! ورحت أنقل بصري في أرجاء هذا المخدع، إن جاز لنا أن نسميه مخدعاً. وإلا فهو أشبه ببيت أرملة فقيرة أتت على البقية الباقية من مخلفات زوجها ؛ فلم يبق منها ما يستحق الذكر، أو ما يستحق أن تبيعه ! هناك سرير قديم محطم الأوصال مزعزع الأركان، عليه فراش قذر عزقت أطرافه، وأطلت منها بجزع شديد بقايا من صوف أدكن، وكأنه امتزج بحفنات من طين.

وربضت فوق هذا الفراش ستارة بالية مهلهلة، توارى لونها الأبيض وحل مكانه لون قاتم سقيم .. وتناثرت هنا وهناك بقع جامدة كأنها عيون فاجرة، أو كأنها بصمات الشيطان

وعلى الجدار .. علقت حصير صغيرة عض عليها الزمن فسلب ألوانها، وكأنها شعرت بهذا الخزي الفاضح فراحت تتلاشى في الجدار، وتختفي وراء صور باهتة ممزقة انتزعت من مجلات عديدة. وفي طرف آخر، وقرب نهاية السرير، علقت مرآة كبيرة قد نخر الدود إطارها الأحمر، فأصبحت كخلية نحل مهجورة فباتت الصراصير فيها تمرح وتصفر.

جلسنا هناك، أنا وصديقي، نقضي ليلة حمراء، ليلة صاخبة رعناء. وبقينا هنيهة جالسين، ننتظر شريكتنا وهي فتاة ممشوقة القوام، ريانة العود. اخترتها حين دخولي في هذا الوكر

وران علينا الصمت ... فبقيت أعلق في أرجاء المخدع ... ماذا ؟! لا أدري ماذا اعتراني ؟! كأن عيني في تلك اللحظة لم تألفا رؤية هذه الأشياء، وكأنني لم أتردد إلى مثل هذا المكان من قبل ... تخيلت في تلك اللحظة أن عيوناً ترقبني وتترصد حركاتي، وكأنني أرى وجوهاً تتطلع إلي باحتقار واشمئزاز، فأخذت أضغط على نفسي وأعتصرها بقوة، لعلها تهرب من

هذه اللجة الطاغية، من هذه الصورة المائية ... أردت أن أفر من ذلك الكابوس المخيف الذي استولى علي في تلك اللحظة ... عند ذلك، وفجأة، امتدت يدي إلى جنبي وأخرجت زجاجة صغيرة بيضاء، لأغسل جوفي بما فيها من سائل أبيض كالحليب ! .. وبعد لحظات قصار شعرت ببعض الهدوء يسيطر على نفسي، وببعض الاستقرار يدب في أحاسيسي وهي تحرز في عنف وجنون .. ولم أشعر آخر الأمر، إلا أنني أستفيق من شرودي على كف بضة تمتد إلي برفق ولين فتربت على كتفي !. فرفعت رأسي قليلا وكأنني قد نسيت تماما أين أنا؟! وماذا أريد؟! ومن جاء بي إلى هذا المكان ؟! ولكن ... تذكرت بعد أن ارتفعت ضحكة ماجنة في فضاء الغرفة وإذا بها غانيتي التي ستشاركني ليلتي هذه ... وكانت قد أخفت قسمات وجهها وراء أصباغ ومساحيق ... وراحت نحو السرير بخطوات متعثرة واهنة واستلقت عليه بإعياء شديد

وبقيت في مكاني، كأنني قد سمرت على المقعد، أو كان أغلالا قوية قد ربطت جميع أطرافي ... ياللهول !! ماذا أحس ؟! وماذا أرى ؟! ماذا أسمع ؟! وعاد إلى شرودي، وتطاحنت مشاعري مرة أخرى ... زاغت نظراتي، إلى هناك، إلى تلك المرآة المعلقة على الجدار، فتطلعت إلى صورتي، إلى قسماتي !! وحلقت فيها مشدوهاً، وفتحت فمي كالمرعوب، وأردت أن أنطق بشيء، أن أزعق، أن أصرخ ... ولكن ... ولكن الكلمات احتبست في عنقي، وغاض السخط في نفسي ... أتلك هي صورتي ؟! تنطق بالرجس والخسة، تنطق بالشر والجريمة .. لقد أنكرت كل شيء، ورحت ألتفت حولي، وارتدت نظراتي فسقطت لاهثة متعبة على جسد تلك الأنثى، ذلك الجسد الذابل المنهوك الذي تفوح منه رائحة المعصية .. لقد تخيلته في تلك اللحظة — ولا أدري لماذا ؟! — جيفة نتنة تطفو على وجه مستنقع آسن، تصورته أشلاء متناثرة وأعضاء آدمية مشوهة لطخت بالدماء والأوحال !!.

فثارت نفسي ثورة عاتية، ثورة صاخبة ... ورأيتني، وبدون أن أشعر، أتحفز للوثوب وللانقضاض ... على من ؟! وتلفت حولي فلم أجد من يستحق أن أصب عليه لعنات ثورتي، لم أجد هنا غير هذا الجسد المستباح، غير هذه الفريسة المستسلمة الخانعة

وهي لا تزال في ضجعتها على السرير .. وكأنها اطمأنت لهدوئي وسكينتي فراحت تستريح من وصب الحياة ، بل راحت تسترد قواها المنزوفة طيلة النهار

ورحت أنظر إليها وهي متهالكة خائرة ، تنظر إلى نظرة عطف وإشفاق ... بل رحت أقارن بيني وبينها : إنها ضحية مجتمع فاسد ونظام بالية سقيمة ! . لقد دفعتها الأوضاع الشاذة في طريق الإثم والجريمة ، بعد أن امتدت إليها أصابع الزمن العاتية ، فاستلت منها خيوط الرجاء والسعادة ، فأصبحت مومساً فاجرة ، تعيش قسراً بهذا المحيط الموبوء ، وهي موصومة بصفات الاحتقار ... إنها عرض مهدر وشرف مضيع يعبث به من يشاء ، بثمن زهيد !

وأنا ... عربيد فاجر ... ولا أقول ضحية ثانية من ضحايا هذا المجتمع ... أنا الذي دفعت بيدي هذه المسكينة وبأمثالها من بنات حواء ، إلى مثل هذا الطريق الشائك ، طريق الإثم والغواية ! وجررتها إلى مثل هذه النهاية المحزنة ، إلى مثل هذه الحياة الضالة الشقية ، هذه الحياة الملتوية القذرة ... فالويل لي ولأمثالي من أبناء آدم ، والويل كل الويل لأمة لا تستطيع أن تكفل لأبنائها لقمة العيش !

وفجأة ، شعرت أن بركاناً ثائر الأنفاس كان قد انبثق في تلك اللحظة في أغواري ، وأحسست أن جميع أدراني وأوزاري قد تساقطت على الأرض الواحدة تلو الأخرى ، وكأنني شعرت بموجة من الندم تطغى على مشاعري ، وأن شعاعاً لذيذاً تسرب إلى أوصالي ، فراح ينير لي تلك الزوايا المظلمة من جوانب نفسي ونوع من الشعور لم أعرفه من قبل . هذا عجب ! إن روحي تغتسل في هذا الفيض الإلهي الذي يغمرني ... فأصبحت لساعتي — وبهذه السرعة — ثائراً على الأوضاع والتقاليد ، ساخطاً على أهل الصلف والعجرفة من الأغنياء ، كارهاً لدهري الطاغي ، ناقماً على المجتمع الذي احترف الخداع ودرج على الشر والظلم ، فراح يسدل على الحقائق ستاراً من العفة الكاذبة والورع المصطنع !

كل هذه الثورة قذفتها على العالم ، على هذا الكون المائج بالخبائث والمنكر ، وأنا لا أزال على المقعد لا أريم ؛ عند ذاك قمت من مكاني وأنا في أشد حالات الهياج والسخط ، قمت لأصب غضبي ، لأقذف شتائمي ولعناتي ... ولكن على من ؟ وليس أمامي غير هذا الجسد النضو الطليح ، غير هذه الضحية البريئة التي تحركت من مكانها ونهضت جالسة حين أحست بخطواتي تقترب منها ... وجلست بقربها ، وأخذت أحدق بعيونها ، فوجدتها جميلة أخاذة ، يشع منها بريق عجيب فيه ذل الوضيع ، فيه ثورة التكبر ! وعلى قسماتها لاحت ومضات إنسان ثائر ، تلتمع من تحت رمادها جمرات من أنوثة ملتهبة !

وراحت تحدثني حديثاً عاماً لا شيء فيه ، فكأنها اطمأنت إلى هدوئي ودعتي ، وكأنها استقرت على رأي قاطع ، تكهنت في أمره فلم أظفر بغير هذا القول الذي قطع على تصوراتي ، قالت وهي تبتسم ابتسامة مقتضبة :

— بربك ... خبرني ماذا تريد ؟ ! لقد حيرتني ...

فأجبتها وأنا على حيرة من موقفي هذا :

— جئت ... لأعرف قصتك ! .

قلتها وأنا متهيب ، فأجابت على الفور :

— قصتي ؟ !

وانفلتت منها ضحكة تخيلتها عواء مبحوحاً انطلق في جوف ذلك الليل المختنق الأنفاس ، ثم أردفت وهي عابسة :

— قصتي ... هذا بديع ... إذن أنت لم تطلب مني لذة الجسد

— لا . لا ... أريد قصتك ، قصتك الحقيقية ، أصارحك القول أنني جئت أول الأمر في طلب اللذة ، ولكنني الآن عدلت عن رأيي ، فلم أطلب منك شيئاً غير قصتك ... وكفى

وراحت تتفرس في وجهي ... وكأنها تريد أن تنفذ إلى أعماق لتستجلي السر الدفين الذي دفعني لأن أطلب منها هذا الطلب اليسير ! ولما اطمأنت إلي وعرفت صدق قولي ونبل غايتي ، ابتسمت قائلة :

— إذن سأكشف لك عن جراح قلب أدمته الأيام ... قصتي أيها الصديق تتلخص في سطور قليلة ، ولا حاجة هناك للشرح الطويل والمقدمات المسهبة : تزوجت من شاب أحببته وأحبني ... وبقيت سعيدة هانئة في ظلال الزوجية ... ومرت ثلاثة أعوام كلها صفاء وطمأنينة ! . ومن ثم ضحكت الأقدار هازئة ساخرة ، وانقلبت الكأس الحلوة ، فانثالت قطراتها على اليباب ! . مات زوجي مصاباً بالتدرن الرئوي ... وتلفت حولي فلم أجد فسحة من الأمل المنتظر ، لم أجد في هذه الحياة من أركن إليه وأستظل

تحت جناح رحمته ، لم أجدمن ينقذني مما أنا فيه. وأظنك ستسألني عن أهلي . لقد مات أبي بعد زواجي بأيام قلائل ، وتبعته أمي بعد عام واحد ... أجل لقد بقيت وحدي ضالة شريدة ، حتى التقطني رجل فاجر سكير ، كان قد افتتح له محلا في شارع (الرشيد) ، وقد أطلق على محله اسم « وسيط الخدم » ...

— وسيط الخدم ! !

— أجل ... وهذا الوسيط باعني بدوره إلى تلك السمسارة التي رأيتها عند دخولك هـــذا المكان وهي جالسة عند الباب الداخلي ... وتراني الآن وقد أصبحت ملهاة لـكل من ينهد الإثم والخطيئة ، أغوص في هذا المستنقع العفن ، هالكة مع رغبات الرجال ، أمنح نفسي لطلاب اللذة والجسد ، للـكلاب المنتشرة الجائعة على الجيف ، أرافق فرسان الضباب في غزواتهم ونزواتهم !.

انتهت من قصتها وأنا أنطلع إلى وجهها الذابل وقد التهبت خلف هذا الذبول تلك الشعلة التي اعتصرتها أصابع الزمن ، وخنقتها أحضان الفجور ... فأطرقت خجلا وحياء ... ممن ؟ ! لا أدري ! ! ولـكنني شعرت بأنني أغوص إلى أذني في العـار والإثم ، وأنا أسمع من بعيد ضحكات عريضة مجهولة تتجاوب في أنحاء الغرفة ! . تلك كانت ضحكات الشيطان !

ونظرت مرة ثانية ، إلى تلك المرآة الصدئة ... فرأيتها ... يا للعجب ! قد انجلى غبارعنها ، وتساقطت تلك الأقذار التي كانت تغطي وجهها الصقيل ، فإذا بهـا تتلألأ بأنوار ساطعة ولمعان غريب ، ينفذان إلى الأعماق . وسقطت نظراتي هادئة رخية ، ورحت أتفرس في قسمات وجهي ... أحقا ما أرى ؟ أراها مشرقة لامعة ، تشع بأنوار زاهية ، ببريق ساحر أخاذ لم أعهده منذ زمن بعيد ... منذ عشر سنوات ، عند ما كنت ، في ذلك الزمن : أدرج في النور ، وأتمشق الهدوء والاستقرار ، كالطفل البريء يبسم الضاحكة وأساريري المشرقة ... أجل كنت هكذا ، قبل أن أخوض هذا الخضم المتلاطم ، قبل أن تجتاحني أنواء الزمن العاصفة ، قبل أن أشترك في معركة هائلة ، أصبحت فيهـا حليف الشيطان وعبد شهواته ، أسير في موكبه طائعاً ذليلا ... قبل أن أكون سهد ضميري وعبد إرادتي ، قبل أن أكون من راكبي الآثام والموبقات ... قبل أن تنتصر جيوش الرذيلة الفاتـكة على فلول الفضيلة المندحرة ...

والآن ... وفي هذه اللحظات ، وبعد هذا الانقلاب الفجائي ، حلقت نفسي تفتش عن طريق المتاب ، تريد أن تحرق دموع الندم على عتبات المستقبل القريب

وتلفت حولي في أرجاء المكان ، وهناك امتدت نظراتي تفتش عن منفذ للخلاص ، عن طريق مستقيم ، عن منقذ جبار أفزع إليه بعد إخفاق الأماني ... فرأيت صديقي ، ذلك الشيطان قد نحر نفسه خائباً على عتبة هذا المخدع الذي ارتفعت في فضائه ألحان التوبة والغفران ، من قلوب طهرتها الأيام وغسلتها دموع الندم والاعتراف

وعاودت أنظر إلى صاحبتي ، فرأيتهـا تبكي بدموع غزيرة راحت تتساقط كاللؤلؤ المنثور على خدها وتنساب على وسادتها ... يالها من دموع طاهرة نقية . يالها من لحظة عصيبة كشفت أمامي سر هذه الروح المعذبة التائهة ، هـذه الروح التي صفدتها أغلال الغواية ، أغلال الإنسان الآثم الجاحد ... هذه الروح التي عصرتها يد الطغاة الظالمين ، فتركتها نفاية حقيرة ملقاة في زوايا النسيان .

وطفت على موجة من الاشفاق والحنان ، موجة استحوذت على كياني وشغلت جميع أحاسيسي ، فصممت على أمر عظيم ، أمر أقل مايوصف به أنه عمل إنساني يثلج له صدري ، وأستحق عليه مرضاة وجه ربي ومغفرته ، لعله يمحو مابدمني من عقوق وكفران ! فأمسكت بيدها ورفعتها إلى فمي لأطبع عليهـا قبلات حرى ، قبلات ملتهبة محرقة استنزفت فيها عصي الدموع ، تلك الدموع التي كنت أضن بها كما يضن الشحيح على كنزه . والتفتت نحوي كأنها تستجير بي ، كأنها تريد أن تقول لي : اهرب بي من هذا الأتون الملتهب ، من هذا الجحيم المسعور ... هيا . هيا

ولم أشعر بعد ذلك ، إلا أنني أمسك بيدها وأخرج بها مسرعاً من الدار ، كما لو كانت ترقبنا ألف عين ، وتتسمع إلينا ألف أذن ... وكان الليل يجود بأنفاسه الأخيرة ، والشوارع توشك أن تقفر إلا من رواد الظلام ، وعشاق الحانات ، وفرسان الشهوات والآثام ...

وغبنا في ثنايا الطريق ، ورحنا نقطع الدروب على هدى ضوء باهر انبثق من قلبينا المتفجرين بإيمان جديد ... ومشت معي طائعة سلسة القياد : لأقضي معها بقية عمري ، ولأدفن بين يديها بقية من عفة لاتزال تضج في القلب

العراق — الحلة

عبد اللطيف الشهابي